تقديم

تنطلق دراستي لهذا الفصل من البحث ، بإيماني المطلق أن الموقف من المكان هو (موقف من الصراع الإنساني في الواقع. وموقف من العلاقات الاجتماعية السائدة، مضافا إليها الجوانب الفكرية والنفسية التي تحدد الممارسة أو النشاطات على المكان الفعلي)[1].

إن ثمة أموراً تتحكم في بناء الشخصية الأندلسية، وفي تكوين مواقفها، تعود أغلبها إلى الجوانب السياسية ، او الى الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية .. وغير ذلك. وكل تلك الأمور تترك في الشخصية آثاراً قد تؤدي إلى فقد الأهل أو الوطن أو الوظيفة أو المنصب.

في الفصل الأول ، كان الحديث عن المكان يتعلق بكونه ظاهرة تُعد أساساً في احساسنا وتشخيصنا للأشياء من حولنا ، لا سيما أماكن الطبيعة أو أماكن السكن الاجتماعي أو الأمكنة المعادية. في حين رأينا في الفصل الثاني أن الحديث كان مركزاً على الحدث (التاريخي ، الحربي، الحضري) . وبناء على هذا الحدث استأثر المكان بخصوصيته. وجاء في أبيات النص هنا وهناك عند الشعراء الأندلسيين على حقبهم المختلفة.

أما في هذا الفصل ؛ فلربما تلعب الذات الإنسانية ــ الشاعرة ــ الفعل البارز في الحديث عن المكان ، إذ إن مشاعرها وأحاسيسها وكوامنها العاطفية هي التي تحدد موقفها من الأشياء والأحداث والأشخاص ، ويكون المكان ــ هو الآخر ــ من هذه المسميات التي تكون للشخصية الاندلسية موقفاً منه، سواء أكان هذا الموقف يشكل غربة، أم يحكي حنيناً، أم يقص بكاءً أم يسمع عويلاً.. وغير ذلك.

إن موقف الشاعر من الأشياء حوله موقف محاط بالعوامل السايكولوجية أولاً وأخراً، وإن هذه العوامل هي التي تجعله يمارس العملية الأدبية بأي حال من الأحوال ، فالشعر ــ قبل كل شيء ــ هو مشاعر الإنسان تجاه ما يحيط به. وما يرافقه في حياته من تغير وتبدل وتحول، ، يقول ابن رشيق: (وإنما سُمي الشاعر شاعرا ، لأنه يشعر

(١) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : ص٢١٩.

بما لا يشعر به غيره)[1]. على أن تلك المشاعر ـ مهما كانت مرهفة وصادقة ـ لا تكون ذات قيمة إذا لم تثر فينا احساساً، أو تترك بناء أثراً، وفي هذا يقول الناقد ت. س. أليوت وهو يتحدث عن قيمة الشعر إنها (لا تتركز في مشاعرنا ، ولكن فيما تصنع في مشاعرنا من صور)[2].

(١) العمدة: ١/١١٦.

(٢) الشعر العربي الحديث ـ قضاياه وظواهره الفنية: د. عز الدين إسماعيل ،دار العودة ، بيروت، ١٩٨٨، ص٢٣٠.

المبحث الأول :الاغتراب.

درج معظم الباحثين ـ المحدثين ـ في حقل الدراسات الأدبية على تعميم مصطلحي الغربة والاغتراب في مثل هذه الدراسات[1]. والتعريف بهما والبحث في أصليهما كونهما وجهين لعملة واحدة. وجملة الأمر في هذا العنوان هو اعتناء أولئك الباحثين بما أورده أصحاب المعجمات من أن الاغتراب بمعناه اللغوي يعني النزوح عن الوطن، والتغرب عن المكان الذي يقيم فيه الإنسان[2].

على ان الموضوع ليس مقتصراً على الجانب اللغوي وإن كانت له أهميته التي لا تنكر . فإن الدراسات الأدبية المرتبطة بعلم النفس[3]، ومدى تأثير هذا الأخير على تصرفات الإنسان وتوجهاته المختلفة ، قد طورت كثيراً من المفاهيم والمصطلحات التي تتعلق بمفاهيم اللغة أو مصطلحات الأدب . وبناء على هذا التطوّر أصبحنا نرى فرقاً بين الجنس في الأدب؛ إنا نريد به الجنس الأدبي كالشعر والنثر.. أما فيما علم النفس فقد يكون الأمر مختلفاً عن ذلك تماماً ، وقس على ذلك.

وتأسيساً على الحالة الشعورية للمرء ، وتبعاً للظروف الخارجية والداخلية المحيطة به يبرز غرض دون آخر، ويتألق شعر ويخفت ثان، ويبدع إنسان وينشل غيره.. وهكذا . غير أن سمات الابداع ، لا سيما الأدبي، تبقى مرهونة بالعاطفة والذوق، أي عاطفة المنشئ وذوق المتلقي ، وهذان هما اللذان يتمتعان بالأسبقية. ويكونان -في الأغلب- الحكم الفصل في النصوص الشعرية التي وصلت إلينا، وبيان مدى جودتها وقيمتها ـ فناً وموضوعاً ـ.

(١) ينظر: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٨ـ٩، الغربة والاغتراب في الشعر العراقي المعاصر ـ مرحلة الرواد ـ: محمد راضي جعفر، (رسالة ماجستير)، كلية التربية ـ ابن رشد، ١٩٩٥، ص٢. ندوة حول مشكلة الاغتراب: د. فتح الله خليف، مجلة عالم الفكر، مج١٠، ع١، ١٩٧٩، ص١١٤، الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري: د. سميرة سلامي، دار الينابيع ـ دمشق، ط١. ٢٠٠٠. ص١٦.

(٢) ينظر: البارع في اللغة ، أبو علي القالي (ت٣٥٦) وتحقيق: د. هاشم الطعان ، مكتبة النهضة ـ بغداد ـ ١٩٧٤: ص ٣٠٧. الصحاح وتاج العربية، الجوهري (ت٣٩٣)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. مصر. ١٩٥٦: ١/١٩١، لسان العرب (غرب): ١/١٣٧ ـ ٦٣٩

(٣) ينظر: التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص٥ ـ٧: نقد الشعر من المنظور النفسي: ص٣٧ـ٣٩.

بدءا؛ يمكن القول أن مصطلح الاغتراب هو حالة نفسية تصور مدى انعدام السلطة والانخلاع، والانفصال عن الذات.. والأشياء أو التمرد والعداء والعزلة. وانعدام المغزى في واقع الحياة والاحباط)[1]، وما نلحظه في كل هذه المفاهيم انه حالة شعورية قابعة داخل نفس شجية، وهو ـــ أي الاغتراب ـــ حالة مغيبة مخفية يلجأ اليها الشاعر حين يريد أن يبوح لنا عن تدهور أدبه. وفقده لابداعه لسبب ما، ومن ثم انعدام سلطته الأدبية عموما، فيزول كيانه ويتلاشى بعد أن كان مثالا يحتذى وبه ذخت يُضرب[2].

وما لاشك فيه أن عوامل الاغتراب وأسبابه كثيرة، يمكننا ان نجمل أهمها في:

أ ـــ **العاهة الخلقية**: كالعمى مثلاً[3]. إذ أن مثل هذه العاهة قد تزيد من حدة العوامل النفسية الى جانب العوامل الأخرى ـــ التي سنذكرها ـــ تساعد على اغتراب الذات المبدعة وتشل حركتها الطبيعية في سبيل الحصول على قوتها أو تمنعها بقدر كاف من أسباب العيش.

ب ـــ **العوامل الاقتصادية**[4]: يُعد الجانب الاقتصادي من الجوانب المهمة في حياة المرء ، لاسيما صاحب الموهبة والابداع، فالأديب ـــ كمبدع ـــ لا يمكن أن يتنازل عن مستوى معيشي مرموق يليق به وبأدبه في كل عصر.

جـ ـــ **حياة الأديب نفسه**: لقد تعرض الكثير من الشعراء لحالات اجتماعية مرهقة دعتهم في حالتي قلق دائم، وخوف مستمر، ووسمت بعضهم بسمات غير سوية ، وبناءً على هذه السمات كانت حياتهم مغتربة، وساعدت الظروف التي ذكرنا بعضها ـــ كالجانب الاقتصادي ـــ على زيادة الطين بلة ، وأبقت تلك الحالات في تصاعد مرير.

د ـــ **ضياع الأدب والشعر خاصة**: إذ أرتقى فيه الذي يعلمه. واهملته السلطة لاشتغالها بالحروب والفتن، وتدهور الحياة الثقافية للمجتمع، فإن مثل هذه الأمور لا تليق

---

(١) الاغتراب ـــ اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً ـــ : قيس النوري، مجلة عالم الفكر، مج١٠،ع١، ١٩٧٩، ص١٣.

(٢) ينظر: م. ن. : ص١٥.

(٣) كُتبت رسالة ماجستير عنوانها: الاغتراب في شعر ابى العلاء المعري، للباحثة : رفل حسن طه، كلية التربية ابن رشد-جامعة بغداد ، ٢٠٠٠.

(٤) هناك اسهامات للاقتصاديين في بحوث الاغتراب وقد خرجوا بمعلومات احصائية عن ارتباط علم الاقتصاد، بعوامل الاغتراب . ينظر: الاغتراب ـــ اصطلاحاً ومفهوماً وواقعا ـــ: ص ٢٦، الاغتراب في الشعر العباسي: ص١٠٦ ـــ ١١٠.

للأديب الأريب، وهو يبحث في أسباب شهرته، وعوامل تميزه بين الناس، بالموهبة التي أعطاها الله ــ سبحانه ــ له على حساب الآخرين. فعندما يفقد هذه الموهبة الربانية لابد أن تكون الحالة المعاشة له حالة مضطربة غير مستقرة.

هـ ــ اهمال الشاعر من قبل المجتمع عامة، بل؛ والتنافس في سبيل ايذائه. وربما يكون هذا الايذاء بطرق عدة، كـ:

١ ــ عزله إدارياً ووظيفياً.

٢ ــ التنافس في الرزق في سبيل حرمانه اقتصاديا.

٣ ــ إخضاعه لأنظمة اجتماعية قاسية، بغية النيل منه في كل وقت. واضعاف مقدرته الادبية واشعاعه الفكري المؤثر ، فيبقى هكذا بلا حول أو قوة[١].

وربما لا نجد عوامل الاغتراب كلها في اغتراب الذات الأندلسية . ولكن قد نجد بعضها عند كثير من الشعراء، والمهم في حديثنا هنا أن يبقى التركيز على المكان مهما كان ــ خيالا أو واقعاً أو مفترضاً ــ فعليه تُبنى (التجربة الإنسانية العميقة التي خاضها الشعراء العرب خلال العصر، وجسدوا من خلالها الحس الأصيل بالوطن المرتبط بشكل صميم في الوجدان)[٢].

وعلى أية حال؛ تبقى المادة الأولية في بحثنا ــ الشعر ــ هي التي تضع أيدينا على مزايا الاغتراب الأندلسي، وكيف عانت الذات الأندلسية الشاعرة من حرمان وضياع واهمال.

إن عوامل الاغتراب في شعر الجزار السرقسطي لم تتجاوز ضياع الشخصية الأدبية ، وتغير الظروف نحو الأسوأ. وتدهور الأدب في عصره، هذا فضلاً عن (العوامل الذووية، وصفاته الشخصية، حيث كانت فيه حدة مزاج ووعورة خلق إلى جانب الفقر التي كان عليها الشاعر ، وتمرد الأيام عليه، وانفلاتها من يديه)[٣]. ولذا نراه في اغترابه هذا ساخطاً على دنياه التي ألت إلى غير اصحابها من المبدعين والمميزين، على أن هذا السخط مشوب باسباب القدر والرضا بمتطلبات الدنيا التي لا

(١) هناك عوامل أخرى للاغتراب منها تسلط الطبيعة القاهرة وظروفها الصعبة لاسيما في الشعر الجاهلي. ومن عوامل هذا الاغتراب في هذا العصر أيضاً، السواد واشارته للعبودية، والنظام القبلي المتسلط على الفرد. ينظر: الاغتراب في شعر طرفة: عبد الفتاح نافع، المورد، مج٢، ع٢، ٢٠٠٠، ص١٨ ــ١٩. فقد ذكر بعض هذي العوامل . الاغتراب في الشعر العباسي: الفصل الثالث (ص١٠١ــ١٢٠).

(٢) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : ص٢٤٢.

(٣) ديوانه: مقدمة المحقق: ص ٢٩.

حال، ولا تستقر بشخص، يقول: لا تدوم على

مَا بالُ دنياي الدنيةِ لم تَقُمْ   أَودي، أكلُّ مفوَّهٍ، محرومُ؟
لا تجزعي يا نفسُ إنْ خطبٌ غَدا   فالحرّ يعثرُ تَارةً ويقومُ
فكذا الزمانُ بأهلهِ مُتقلّبٌ   لا البؤسُ فيهِ ولا النعيمُ يدومُ[1]

وإن هو ترك مهنة القصابة المزرية ليكون أديبا ذا بال، أو صاحب حظوة ثقافية عند أهل الثقافة والأدب، زادت بلواه، وعظم اغترابه فلم يزده الشعر مكانة، ولم يرفع به شأناً، وهو المعروف بنظم الشعر، والمضروب به مثلاً في نظم القوافي وجودة القول، هاك قوله:

رأيتُ قوماً بنظمِ الشعرِ قَد وصلوا   إلىٰ المنىٰ وأُنيلوا فوقَ ما سَألوا
فقلتُ: مالي لم أسلكْ سَبيلَهم   أليسَ بي في القوافي يُضربُ المثلُ
لو أنَّ نظمَ غريبِ الشعرِ مَعركةٌ   ما كانَ غيري فيهِ الفارسَ البطلُ

ثم يصف لنا حال الشعر، وكيف أنكر، ولا كأنه الذي رفع أقواما وأذل أخرى، ولا كأنه أغنى أناساً وأفقر آخرين، ولا كأنه جعل صاحبه – على مدى الزمن – صاحب ولاية، أو حاكم مقاطعة، الآن يصبح الشعر مجاعة، ويمسي صاحبه محروما، ومتلقيه بخيلاً معرضاً:

لما بَدا لي أن الشعرَ مسغبةٌ   وحظّ ناظمهِ الحرمانُ والبخلُ
عدلتُ عنهُ وقلتُ: الموتُ أيسرُ من   تسآلِ قومٍ إذا ما أُستُمنحوا بَخلوا

وحتى القصابة – التي عاد إليها – أنكرته، وأبقت عليه مغتربا بين أهله ومكانه وخلانه، إنها الآن تجفوه ولا تصله بعد أن كانت به غراء واصلة. إنها معاناة نحو أخرى، وبلوىٰ عَلىٰ بلوىٰ:

(1) ديوانه: ص ١٨٢.

حسبي القصابةُ لا أبغي بـهـا بـَدلاً من قَــرَّ بالشــيء عينـاهُ عـزَّهُ البـدلُ
وكان عهدي بِـهـا غــرّاءَ واصلــةً إذا بـهـا فـارك تَجفـــو ولا تَصــلُ[١]

ولذا لا سبيل إلى ترك المهنتين ــ القصابة والأدب ــ ما دام لم يعرف بالأولى الأعــل، او وصل بالأخرى إلى المنى، فبقي مذبذباً لا إلى هذه ولا إلى تلك:

لا بالقصابــةِ أُسـتولي عَلـى أملـي ولا بشـعري إلـى نيـلِ المنـى أصـلُ
مذبـذبٌ غـيرَ حـاظٍ فـي سـبيلِها مثـلَ النعامـةِ لا طَـيرٌ ، ولا جَمـلُ[٢]

إن مثل هذي الأبيات اجتثت من واقع ومرير، وحال باكية، فقد أحسّ السرقسطي باغترابه الاجتماعي، والأدبي، والنفسي ــ الشعوري ــ . وفي كل هذه الحالات التي مر بها لم نره يترك مكانه أو مدينته. بل: بالعكس تماماً إذ هو يُلقي باللائمة، ويرمي بالتقريع والتوبيخ على رجل رحل عن سرسقطة فاراً بها حذار العدو. وأظهر في فراره المسير إلى الحج، فلما أبصر البحر جزع وانصرف. يقول السرقسطي واعظا ناصحا :

لا ابتغـي بُعـدَ المواطـنِ عيشـةً تـركُ المواطـنِ محنـةُ الأحـرارِ
والبحـرُ أصعـبُ ميتـةً لغريقـهِ مـن ميتـةٍ بعوامـلٍ وشـفارِ
وأحقُّ مـن نـالَ الشـهادةَ مُقصِـدٌ بالمشـرفية والقَنـا الخطـارِ
أو ليسَ أفضـلُ أنْ أمـوتَ مُجـاهداً مِـن أن أمـوتَ لُقـىً غريـقَ بحـارِ[٣]

وتعلو أصوات السرقسطي المؤمنة بالقدر ، أيما كان، خيراً وشراً، صبراً لا جزعاً، إيماناً لا خوفاً، وقد مرت به كل الخطوب الرزق الحال المعنوية ، العصر. لكنه لم يجزع ولم يكسل ما دام قوله:

المـرءُ تحـتَ تصـرفِ الأقـدارِ لا يدفـعُ المحـذورَ طـولُ حـذارِ[٤]

(١) ديوانه: ص ١٧٢ــ١٧٣.
(٢) م.ن.: ص ١٧٣.
(٣)م.ن.: ص ١٨١.
(٤) م. ن.: ص ١٨٠.

إن الاغتراب هنا صرخة مدوية، وحالة نفسية منازعة تركت شرخا عميقا في نفس المبدع، ثم في ابداعه، وإذا كانت نصوص الجزار السرقسطي التي عرضناها لم يكن فيها المكان قد عولج بصورة مباشرة أو بمدخل سريع، فإن اغتراب ابن عبدون الشاعر الذي يبدو شعره أكثر تمثيلاً للمكان، وحالته أعمق تأزماً من حالة الجزار السرقسطي. فقد شهد سقوط بني الأفطس، وشهد تغير الحال، ومن ثم فإن حمص ــ اشبيلية ــ زادت اغترابه ، وأثارت حفيظته نحوها كمكان ، يقول:

فلم أكنْ وسوىُ بغداد لي أملُ فيها كما كنتُ في أهلي بمغتربِ
وإنْ نبتْ حمصُ بي والله يعصمُها ركبتُها عزمةً تشأي الكواكبَ بي[1]

وفي قصيدة أخرى مدح بها المعتمد بن عباد والي اشبيلية شكا فيها حاله واغترابه ، فالاغتراب يرتبط مفهوماً ودلالة مع المديح بشكل عميق[2]، والذي يهمنا هو أن نتلمس آثار اغتراب ابن عبدون في هذا النص المدحي، ففيه ارتبط الزمن ــ الدهر ــ والمكان ــ اشبيلية ــ في نفسية شاعرنا والامه:

يَا دهرُ إن توسعُ الأحرارَ مظلمةً فاستثنني إن غيلي غيرُ مقروبِ
مَهلاً فدرعُ حويلي غيرُ محتنةٍ عُجباً وسيفُ عزيمي غيرُ مقروبِ
ولا تخلْ أنني ألقاكَ مُنفرداً إنَّ القناعةَ جيشٌ غيرُ مَغلوبِ
ما كلُّ من سيمَ خَسفاً عافَ موردَهُ إنَّ الإباءَ لظهرٌ غيرُ مَركوبِ[3]

إن الأبيات التي وصلت إلى القافية المكسورة بهذا الاستثناء أعطى لكل بيت حكمة ، وترك الشاعر في مشاعرنا فخراً وعظمة. ففي البيت الأول؛ أدركنا أن الدهر الذي وسع الجميع ظلمه، أنه قد يستثني الشاعر في قوته وفخره بنفسه . فهو قد شاهد سقوط بني الأفطس وضياع بطليوس ، فلا ضير عليه أن يشاهد سقوط بني عباد وضياع اشبيلية.

---

(١) ديوانه: ص ١١٤.

(٢) ينظر: الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج القسطلي، د. محمد شوابكة ، مؤتة، عمان، ع١ ، ١٩٨٩، ص١٤٢.

(٣) ديوانه: ص ١١٠.

وفي البيت الثاني؛ أعلمنا ابن عبدون أن سلاحه ــ الدرع والسيف ــ وهما الوزارة والشعر ستبقيان مشرعة دائماً أمام حوادث الدهر وتصرفاته ، لا ينثلمان إلا بالموت.

وفي البيت الثالث؛ وضع أمامنا الحكمة التي تقول (القناعة كنز لا يفنىٰ) ، وهي حكمة لشخص عانىٰ اغتراب الحكام، والمكان.. وأن هذه القناعة علىٰ مثل هذه الظروف لم تكن لتحدث إلا لنفس أبية، صامدة وهذا ما أراده في البيت الرابع.

إنها صورة واضحة تبين لنا قوة الإنسان الأندلسي، وشموخه وعزته بنفسه في ظروف قاسية، إن وقع في سمات الانهزام والذل والخسف ــ لا قدّر الله ــ ما كان عليه من حرج أو ضيق.

وعند الشاعر التطيلي قد تضاف إلى العصر والفاقة والاحساس بالضياع عوامل أخرى تشكل الاغتراب الحقيقي للنفس البشرية ، فهو إذا أُبتلي بالعمى وصبر على ابتلائه . أُبتلي بفقد أهله ــ زوجه ــ التي أحبها فقد أمضت معه أيام البلوى وصبرت عليها على الرغم من كون زوجها أديباً ــ شاعراً وأديباً ووشاحاً-ذات مكانة، وذا سمعة طيبة بين أهل الثقافة والعلم، لو لم يحيا في ذلك العصر وتحت تلك السلطة، فاغترابه في وطنه ــ اشبيلية ــ واضح، وهذا الاغتراب الذي أثاره المكان لم يسه العمىٰ ، كثرة الشيب وضيق المعاش ، يقول:

أما اشتفتْ مني الأيامُ في وطني ... حتّىٰ تضايقَ فيما عنَّ من وطرِ
ولا قضتْ من سوادِ العينِ حاجتُها ... حَتىٰ تكرَّ علىٰ ما كانَ في الشعرِ(١)

ويبدو أن السلطة التي آلت إلى غير أصحابها ــ مقدرة وإحكاماً ــ كانت شكوىٰ التطيلي، وموقع اغترابه في قلبه ، لاسيما أن هذه السلطة المتعسفة كانت في اشبيلية فزادت الأمور سوءاً، وألفت بشاعرنا خصيم الزمان والمكان والناس. يقول عن تلك السلطة وصاحبها:

إلىٰ اللهِ اشكو الذي نحنُ فيهِ ... أسىً لا ينهنهُ منهُ الأسىٰ
علىٰ مثلِها فلتشقَّ القلوبُ ... مكانَ الجيوبِ وإلَّا فلا

---

(١) ديوانه: ص ٤٩.

فَشَا الظلمُ واغترَّ أشياعُهُ   ولا مستغاثٌ ولا مُشتكى(١)

وعن حال حمص، وما حل بها، يقول التطيلي معرضا بما حل به وبما نزل قبله بشاعر العربية المتنبي وما لاقاه في مصر، يقول التطيلي:

وماذا بحمصٍ من المضحكاتِ   ولكنَّهُ ضحكٌ كالبكا(٢)

ولم يكتف شاعرنا التطيلي ــ المثقف ــ بهذا التضمين، وإنما عمد إلى أسلوب آخر من أساليب الشعر العربي قديماً وهو صورة المرأة اللائمة . عندما خاطب الرمز النسوي بـ (زُهر) . وراح يبادلها الحديث وكيف قعدت بها الآمال، وقصرت عنه الأماني في مثل عصره الذي عاش فيه، يقول:

هبّتْ تُعاتبني زُهرٌ وقد علمتْ   إنَّ العتابَ شجىً في القلبِ أو شَجبُ

قالتْ: قعدتَ وقامَ الناسُ كلّهم   ألا يعلّك الاثراءُ والرتبُ

فقلتُ: كُفّي عن مقارعتي   في أزمةٍ ضاعَ في أثنائِها الأدبُ(٣)

إن الحوار البسيط ، ودعمه بالجناس في أول الأبيات (شجى، شجب) والتكرار بين (تعاتبني والعتاب) أشاع جوا من أصوات العين والشين والجيم، وحين تم توزيع الأصوات المهموسة بكثرة لا سيما (التاء) أغدق على الأبيات حسرة وألقى فيها روحا متألمة باكية. ولاشك في أن الفعل (هبت) في بداية الابيات صور لنا مدى الركود والخمول الذي آل إليه شاعرنا التطيلي، وبناءً على ما اصابه ذُعرت لحالته المرأة ــ الرمز الوهمي ــ وأخذت تدعوه لأخذ مكانته الحقيقية ، ودوره الفعلي . في الحياة الاجتماعية والثقافية.

إن مثل هذه الصنعة ــ الحوار والحروف والرمز ــ قادرة على شرح حالة الشاعر في مقدمة القصيدة المدحية، لأن الممدوح لا يرىٰ بُدا من تقديم العون والمساعدة لهكذا أديب في مثل عصره.

---

(١) ديوانه: ص١.

(٢) يقول المتنبي : وماذا بمصر من المضحكاتِ   ولكنَّه ضحكٌ كالبكا

ديوانه: وضعه عبد الرحمن الرقوقي، مطبعة السعادة، مصر ،(د. ت): ١/١٦٧.

(٣) ديوانه: ص ١٦، شجب: حزن.

ومرة أخرى تقف اشبيلية التي أنتجعها التطيلي مكاناً للمغتربين حائلا امام امال التطيلي وطموحاته، فهذه ليست اشبيلية مدينة المعتمد أو مكان ابن اللبانة أو موطن ابن عمار، أنها تضيق ذرعاً بأصحاب الثقافات . تتكل عزائمهم ، وتزيد اغترابهم ، وتنبو بهم، يقول التطيلي في ذلك كله:

نبتُ بي حمصٌ جادَها كلُّ مرهمٍ ... تَسهلُ الربا بالشكرِ أيّانَ يَسهمعُ
وما كنتُ أخشى أن أحلَّ ببلدةٍ ... بِها غَصصٌ مِن أهلِها وهي بلقعُ
وما أخملوني لكنِ المجدَ أخملوا ... وما ضيعوني لكنِ العلمَ ضيَّعوا
وبينَ ضلوعي ما لَو أنَّ أقلَّهُ ... بأكنافِ رضوى أوشكتْ تَتصدَّعُ
وينبئني الحرمانُ عَن كلِّ مطلبٍ ... ونفسي عليهِ حسرةً تتقطعُ[1]

إنه يخلق عالما خاصاً به فيبني مطالبه على الحرمان، ويشكل علاقاته على التقاطع . ويذكر مجده بالخمول، وعلمه بالضياع. إن أصالة شعره تكمن في معرفته أسرار النفس الإنسانية فهو يلجها بشكواه، ويجعلنا نبكي معه دونما شعور .

ابن بقي الذي عاش عصر المرابطين، وأحس بما أحس به التطيلي كان لاغترابه صدىً طيباً في أشعاره. على أننا نود أن نقول أن العصر والضياع لم يكونا الأسباب كلها في اغتراب عصره، فلابد من القول ان ابن بقي شخصية قلقة في تأريخ الأدب الأندلسي. فهو قلق البال ، قلق السيرة، لا يبقىٰ علىٰ حال واحدة دائم السأم والضجر[2]. وهذه الخصائص بعض سمات الإنسان المغترب . إن لم نقل أكثرها[3] . ولكي نعرف أسباب هذا القلق والضجر ــ سنعود إلى اشعار ابن بقي من أبيات وقصائد . علّنا نعثر على ضالتنا ، ونثلج صدورنا ونحن نريد الحديث عن عوامل الاغتراب التي تقف خلف عوامل السأم والقلق والاضطراب المعروفة في شخصيته.

(١) ديوانه: ص ٧٩، وينظر: ديوان الأعمى التطيلي ــ دراسة موضوعية فنية-: ص ٥٤.

(٢) ينظر: موشحات ابن بقي الطليطلي وخصائصها الفنية: عدنان محمد آل طعمة.دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٩٧٩، ص ٣٤ ــ ٣٦.

(٣) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص ٣٤ــ٣٥.

ففي اغترابه بين أبناء جيله ، وفي عصره الذي ضاع فيه الأدب. وانتكس الشعراء[١] يقول:

وضيعني قومي لأنّي لسانُهم   إذا أُفحِمَ الأقوامُ عندَ التكلّمِ
وطالبني دهري لأنّي زينتُه   وأنّي فيهِ غُرّةٌ فوقَ أدهمِ[٢]

إن (أنا) الشاعر واضحة وهي تتقطع بمصيرها المشؤوم . لاسيما وأنه أبان في نهاية المقطوعة عن تمكنه من أسباب الشعر، واتقانه لأساليب البديع حتى سارت بأشعاره الركبان وغنت بها الحمائم:

هو الشعرُ أجري في ميادينِ سبقهِ   وأفرجُ من أبوابهِ كلّ مُبهمِ
وسَلْ أهلَهُ عني هل امتزتُ منهم   بطبعي وهل غادرتُ من متردمِ؟
سلكتُ أساليبَ البديعِ فأصبحتْ   بأقوالي الركبانُ في البيدِ ترتمي
وربّما غنّى بهِ كلُّ ساجعٍ   يُرددُهُ في شجوهِ والترنمِ

وفي نص آخر يبدأه بالليل، ويذكر كيف خيم عليه السواد وهو بين أجنبية مثلما مثل الدهر ظلما، وقساوة[٣] ، وهو لا ينفك من هذه الصورة الظلوم إلا لصورة الحرمان والضياع له ولأهل الأدب في زمنه:

أكلُّ بني الآدابِ مثلي ضائعٌ   فأجعلُ ظلمي أسوةً في المظالمِ
أمِ الظلمُ محمولٌ عليَّ لأنني   طلبتُ العُلا من قبلَ حلِّ التمائمِ

وهو إذ يبكي هذه الحال، فإنما يبكي الأدب ــ والشعر خاصة ــ ولا ذنب فيه غير زمانه وعصره :

ستبكي قوافي الشعرِ مَلءَ جفونِها   علىَ عربيٍ ضاعَ بينَ أعاجمِ

---

(١) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ص٢٣٧ وما بعدها ، الأعمى التطيلي (حياته وأدبه) : عبد الحميد عبد الله الهرامة، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس. ١٩٨٣. ص١٥٦ وما بعدها ، الشكوى من العلّة في أدب الأندلسيين: د. علي بن عبد الله بن تقفان ، مكتبة التوبة، الرياض، ط١ــ ١٤١٧هــ ــ ١٩٩٦، ص ٥٦ ــ ٥٧.

(٢) ديوانه: ص [illegible].

(٣) ينظر: م. ن: ص٩٣.

ولا ذنبَ لي عَــن الزمــانِ علمتُــهُ   ســوىٰ أنّنــي للشــعرِ آخــرُ نــاظمِ[1]

إن (الاغتراب شعور ينتاب الفرد فيجعله غــير قــادر علــى تغيــير الوضــع الاجتماعي الذي يتفاعل معه، والاستعمال الثاني للاغتراب ؛ هو عدم وجود الهدف عند الشخص المغترب)[2]، ولذا ربما يجد المغترب أن تغيير المكان قد يفضي به إلىٰ حــال اكثر استقراراً ، فيمسي مع أناس غير الذين عاش معهم. ويحل مع أحداث غير التــي عاصرها. وهذا ما أراده ابن بقي عندما فكر في الرحيل عن أرض الأندلس لا سيما ان عانىٰ اغترابه من حمص. كما عانىٰ منها غيره، فكانت له المكان الــذي أشــعل نــار اليأس، وأثار مشاعر البغض والكره ، هاك قوله فيها:

مُنّى النفسُ في حمصٍ، وحمصُ لذي الحجىٰ   فروكٌ لأمرٍ ما تصــدّ عــن البَعْــلِ
نبَتْ بــي كمــا ينبــو الجبــانُ بنصلــهِ   ويحملُ ما ياتيهِ ذنبــاً علــىٰ النصــلِ
وأيأســني مــن كُـــلّ خـــيرٍ رجوتُـــهُ   كثيرٌ وما شاهدتُ في الكُــثرِ والقُــلِ[3]

ولاشك في أن هذا المكان ما كان ليكون بمثل هذا التشاؤم ، ويحمل خصــائص الحقــد والكره لولا أهله الذين هم:

أُناسٌ كمـــا شـــآءَ الزمـــانُ ولا كمـــا   تشــاءُ المعــالي عقدهُم بيــن الــــرّ
أزورهـــم لا لـــودادٍ وقـــد دَروا   فيلقوننــي بيـــنَ التــوددِ والغـــلّ
وأمدحُــهم يــا حسـبي الله، كاذبـــاً   فيَجزوننــي بــالمنعِ شَــكلاً إلــىٰ شَــكلِ

إن الذات المغتربة تظل تناشد مكانا جديدا وتبغي الوصول إليه فهو الامل الجديد والحياة الآمنة التي يبحث عنها المغتربون ــ كابن بقي ــ فيظل يحنّ إليــها، وســعىٰ لوصولها:

ولــي هِمــمٌ ســتقذفُ بــي بَــلاداً   نــأتْ أمّـــا العـــراقَ أو الشـــاما[4]

---

(١) ديوانه: ص ٩٤.

(٢) البطل المغترب في الرواية العراقية: د. صبري مسلم، مجلة الأقلام، ع٩، ١٩٨٨، ص١١٣.

(٣) ديوانه: ص ٨١.

(٤) م.ن : ص ٨٨.

ويقول في أخرى:

أنا امرءٌ إن نبتّ بي أرضُ أنداسٍ   جئتُ العراقَ فقامتْ لي علي قدمِ[1]

ربما يكون العراق منأى ابن بقي ــ وإن لم يصله ــ[2]، وربما يكون غير العراق منأى لغيره، وعلى اية حال، إن المكان ــ الأمل ــ يبقى مُنى النفس المغتربة، والذات الحائرة وهي تبحث عنه لتحيا فيه حتى ولو خيالاً في الشعر. أو مفترضا في القول. إنه ــ أي الخيال أو الافتراض ــ نوع من أنواع الهروب عن الواقع بكل ملابساته المريرة، وتناقضاته الصعبة.

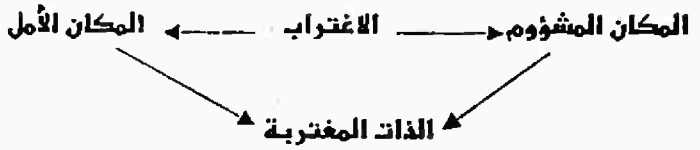

وفي ديوان يوسف الثالث نحس بعوامل الاغتراب سارية في بعض أشعاره وأسباب هذا الاغتراب تكمن في سجنه لمدة طويلة ومن ثم ظروف حكمه اذ فقد بعض هيبته في معاركه، أو فقده لبعض أهله من ولد او زوجة أو أهل[3]، وفي مقطوعة استذكر بها الشاعر المرجي الذي كانت شبه ظروف حياته إلا أن الأخير لم يكن ملك سلطة إنما كان ملك كلمة[4]. يقول يوسف الثالث ، وفي قوله ما يشعر به المغترب في زمانه وأهله ومكانه:

فأيّ جيرتي بالغورِ أشكو   وما يملكُ شكايتهم مُسامُ
رُعيتُ عهودهم فأُضيع عهدي   فسيّان الأضاعةُ والذمامُ
كأني لم أكنْ فيهم جُميعاً   وتُفردني التحيةُ والسلامُ
"أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا"   إذا حلّت بعقوتِها الطغامُ

---

(١) ديوانه: ص ١٠٠.

(٢) استقر ابن بقي في سلا ، إذ رأى بها بعض ما كان يتمناه. ينظر : ديوانه: مقدمة المحقق: ص ١٠. موشحات ابن بقي: ص ٤٣ ــ ٤٤.

(٣) ينظر: ديوانه: مقدمة المحقق :م.

(٤) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص ٩٠ــ٩١، الغربة المكانية في الشعر العربي. عبدة بدوي. عالم الفكر، مج١٥، ع١، ١٩٨٤، ص ١٤.

"أضاعوني وأيَّ فَتىً أضاعوا" لسدِّ الثغرِ ثَلَّتُهُ اللئامُ
"أضاعوا وأيَّ فَتىً أضاعوا" كنصلِ السيفِ جذَّاذً حُسامُ
"أضاعوني وأيَّ فَتىً أضاعوا" ليومٍ يرتجى فيهِ الجهامُ[1]

إن تكرار الشطر (أضاعوني وأي فتى أضاعوا)، على هذه الشاكلة لا يكون له الا تفسيراً واحداً وهو ان إلا أن معاني الضياع بقيت في ذهن شاعرنا الملك، ولذا كررها وأراد بها دلالاتها التي تعني ضياعاً لمكانة الملك الشاعر، أو لاحساسه بنهاية حكمه.. أو لأنه مغترب. فالاغتراب يجعله يحس بكل احاسيسه هذه، وإن ما يبوح به المغترب ما هو إلا جزءٌ يسير من أحاسيسه المبطنة، ويبقىْ الجزء الأعظم من مشاعره وعواطفه بين خلجات صدره، وخلف قضبان قلبه التي لا نعرفها ولن نعرفها.

إن البسطي القيسي الذي نقف عند شعره هنا كان مغترباً رافضا. فهو لم يشتك من أمره إلا لاحراق حانوته، ومن ثم لفقده وظيفته وعزله منها، ولأنه شاهد فقد المدن الأندلسية وهي تتهادى الواحدة فالأخرى أمام عينه، وكيف استبد بها وبأهلها العدو الحاقد. كانت هذه أسباب كافية لاغترابه، ولمرارة حياته التي عاشها.

وعودٌ إلىْ بدء في ذكرنا لأسباب الاغتراب في الشعر الأندلسي وغيره. قلنا أن العامل الاقتصادي أكبر تلك العوامل وأهمها، وبلا ريب أن (قطع الأعناق لا قطع الأرزاق) حكمة مأثورة أخذت من واقع ملموس، ومن تجارب معاشة. فالقيسي طالت فاقته، والقائمون على رزقه ـ بعد الله ـ جعلوه يحيا حياة معدمة[2]. مع أنه صاحب البيان، والأمانة والاخلاص، هاك قوله فيمن حبس عليه مرتبه، ومنع صرفه:

ماذا تقولونَ لي يومُ الحسابِ إذا طلبتُ حقي لكم في واجبِ الطلبَهْ
والله سبحانَه ما بيننا حَكَمٌ يقضي عليكم بهِ القهر والغلبَهْ
فاجلبْ لنفسكَ ما ترجو الخلاصَ بهِ مِن الأداءِ فيا توفيقَ من جلبَهْ
وحظ نفسكَ دَعْ لله محتسَباً قبلَ المماتِ وأعطِ الحقَّ من طلبَهْ[3]

(1) ديوانه: ص١٢٧. والتضمين من ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي، رشيد العبيدي. بغداد. ط١. ١٩٥٦، ص٣٤.

(2) ينظر: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص٢٦١.

(3) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٦٠، ديوان عبد الكريم القيسي: ص ٢٢٣ ـ ٢١٤.

وحتما أن تكون معيشته ضنكا، وحاله لا يسر عدوا ولا صديقا:

أكادُ لفرطِ ما ألقاهُ أفنى ... وللشكوى التي أشكو أذوبُ
فدمعي في الخدودِ لهُ انسكابٌ ... وقلبي للأوار بهِ لهيبُ
وليلي للكآبةِ مدلهمٌ ... ويومي للذي أشكو عصيبُ
وقد أصبحتُ في كربٍ عظيمٍ ... وعيشٍ لا يلذُّ ولا يطيبُ[1]

إن النظرة التشاؤمية هذه لم تقتصر على المعيشة، فإنه ــ أي القيسي ــ حمل صفات العداء لاولئك الأشخاص ، فأصبح يزري بهم في كل مقال ، وأمام كل مقام، فالاغتراب عنده اغتراب العيش ، والأحباب، والوظائف والأماكن ، ففي اغترابه من الأحباب والأصدقاء هاك قوله وهو ينفي عن الصديق صفاته المعهودة في حفظ السر والوفاء ودوام المودة:

إنْ شئتَ من دنياكَ حُسنَ تخلصٍ ... لا تطمئنّ إلى صديقٍ مُخلصِ
وإذا تخالطُهُ كثيراً عُدَّهُ ... في الناسِ كالمجذومِ أو كالأبرصِ
وألزمْ سكوتَكَ عندَهُ وإذا اقتضى ... منكَ الكلامَ بما اقتضاهُ تربّصِ
وانظرْه محاسنَهُ التي يزهو بها ... ويتيهُ اعجاباً بعينِ الأحوصِ
إنّ الصديقَ ليستحيلُ تغيراً ... فيجيءُ من عدوانهِ بملخصِ[2]

ومن الطبيعي أن يشكو المغترب ما حل به، فيمدح ليصف حالا أو يذكر عوزا، ويحب ليعبر عن فقدان أمانة وضياع وظيفة لاسيما تلك التي ترتبط ارتباطا مباشرا بالدين، تعمد العهدة عليها، كالفقيه أو المحدث أو القاضي. فكيف كان هؤلاء على عهد البسطي؟ وكيف كانت نظرته إليهم؟ أما القضاة فكانوا ــ والعياذ بالله ــ يبرمون النكاح بلا صداق، ويغيرون الأحكام ، ويأتون بالعجيب في أحكامهم وأوامرهم، يقول في قاضي بسطة ابن مفضل[3]:

تباً لقاضي بسطةَ ابنِ مُفضّلٍ ... تباً لهُ فيهِ يروحُ ويغتدي

(١) البسطي آخر شعراء الأندلس : ص٦١، ديوان القيسي: ص ١٢٩.

(٢) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص٨٦ــ٨٧،ديوان القيسي: ص ٤٤٣.

(٣) أشار د. محمد بن شريفة أنه لم يعثر له على ترجمة فيما توفر لديه من مصادر. البسطي : ص١٩٤، وكذلك نحن.

فلقد أتى من حكمه بعجائب — أمثالها في عصرنا لم تعهد
فالسجن عند سواه معروف المحل — وعنده فالسجن جوف المسجد
ويرى النكاح بلا صداق جائزا — رأي الغوي الجاهلي الملحد
ويغير الأحكام عما أضلت — تغيير جبار عنيد معتدي[1]

ولم يكن حال الفقهاء بأفضل من حال القضاة ولا أحسن منهم، بل بالعكس انجرفوا وراء أهوائهم، وافتوا بما فيه صالحهم، فضلوا وأضلوا. يقول فيهم البسطي معرضا ومنددا:

الكلب صار ببسطة — أعلى وأشرف من فقيه
أنى فقيه يعتلي — لمحله أو يرتقيه
الكلب مالكه بها — من كل ما يخشى يقيه
وفقيهها من أهلها — ما ساء منهم يتقيه[1]

إذا كانت هذه هي الحال المادية، والاجتماعية والدينية، فإن بسطة تحولت إلى أرض اغتراب، وأن الذي يحياها كأديبها القيسي لابد من أن يشعر باغترابه فيها لأن الأحوال التي ذكرناها آنفا تفضي به إلى هجر المكان والرحيل عنه مهما كان فالقيسي البسيطي يرى في بسطة مقام ذلة، وضيم زمان، ولا يرضى بعيشها إلا ذليل عاجز، ظالم لنفسه :

خليلي ما مثلي يقيم ذليلا — ويحمل من ضيم الزمان ثقيلا
ويرضى بعيش لا يزال ببسطة — يجدد من خطب الهموم جليلا
فلا تعذلاني في رحيلي عنكما — فإني لما ألقى عزمت رحيلا
فكيف لنفسي أن تقيم ببلدة — تشاهد فيها مثل ذا وتقيلا
فإن من العجز الثواء بموطن — يكون به الظلم الذميم نزيلا[2]

إن الاهتضام الذي تعرض له الفقيه الشاعر ــ القيسي البسطي ــ في بلده كان انعكاسا على أدبه، فأصبح يقول أشعاراً في ذمه ويهجو أهله فمن ذلك قوله:

---

(١) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص١٩٤، ديوان القيسي: ص٢٤٣، وانظر في القضاة. ديوانه: ص ٢٧٠.
(٢) البسطي آخر شعراء الأندلس : ص٧٠ــ٧١؛ ديوان القيسي : ص٣١١.
(٣) البسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٥٦ــ٥٧ ، ديوان القيسي : ص١٢٧.

أيُّها الصبُّ بسُكنىٰ بسطةٍ ... يبتغي العِزَّ بها والشرفا
انصرفْ عنها لسكنىٰ غيرِها ... فكِلا الأمرين عنها انصرفا
لا تؤمِّلْ نيلَ شيءٍ منهما ... ما عليها الملوانِ اختلفا
بلدةٌ فيها الهوا مُنحرفٌ ... كمزاجِ الناسِ فيها انحرفا[1]

في المحصلة النهائية ومن خلال ما ظفرنا به من نصوص شعرية حملت سمات الاغتراب، وشكلت مناحيه المختلفة عند الشاعر الأندلسي ، يمكن القول أن المكان كان له الأثر الفعال في اظهار تلك السمات، وتشكيل هاتيك المناحي. وهذه السمات والأشكال إن اختفت عند بعض الشعراء خلف الأحداث أو الأشخاص أو العاهات، فلم يكن للمكان الدور الأول مما قد يظن لأول الأمر؛ فإنه ــ أي المكان ــ بقي الملوح المهم الذي كشف لنا تلك الأحداث وشخوصها، ومن خلال النصوص قادنا المكان لمعرفة مشاعر الشاعر المغترب تجاه علته وأحداث عصره وأشخاصه. فالمكان هو المحور الأساس الذي يكشف لنا عن كل شيء وفي أي وقت.

(١) البسطي آخر شعراء الأندلس : ص٦٩، ديوان القيسي: ص ٤٦٨.

المبحث الثاني : الغربة والحنين.

إن الاحساس بفقد المكان احساس عميق ينبثق من صميم وجدان المرء، وعواطفه . ولا سيما (إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط المبدئي المشيمي برحم الأرض ــ الأم ، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا. ويزداد هذا الحس شحذاً إذا ما تعرض المكان للفقد أو الضياع ، وأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى)[1]. وكيف لا يشحذ الذهن مثل هذا الموضوع الغربة؟ بل. وكيف لا يستولي المكان على اهتمامات الانسان الكثر؟ فاذا ما فقده فقد تلك الاهتمامات جميعاً.

والشعراء ــ كباقي الخلق ــ حينما يغادرون أوطانهم إنما يغادرون فيها ذكرياتهم ، وملاعب صباهم، وميدان أدبهم،فإنهم لابد من أن يحنوا إلى نخلة رمزت قصة حبهم، أو لوادٍ حكى أثر محبوبتهم ، أو لسفح أو لجبل أو لمدينة. فالمكان بمظاهره المختلفة يبقى الهاجس الحقيقي الذي يثير فينا مشاعر الحنين ، بعد أن يثير مشاعر الغربة.

والغربة والحنين موضوعان متلازمان في كل شيء فكراً وأدبا وشعورا. فالإنسان ما أن يحس بغربته، ويشعر بتغير مكانه، حتى يبدأ حنينه الجارف لمكانه ومنزله الاول، الذي ضاع منه فشكا ذلك الضياع طويلا، وبكاه غريباً. وعلى الرغم من هذا التمازج بين الموضوعين إلا أننا سنتحدث عن كل واحد منهما على حدة ، كاشفين عن عوامل الغربة، ومن مظاهر الحنين عند الشاعر الأندلسي بحسب السادة الشعرية التي عثرنا عليها والتي نظن أنها كافية لكشف تلك العوامل والمظاهر وبيان أثرها عند المتلقي ، بعد أن أثرت في فكر منشئها وشعره.

أ ــ الغربة. الغربة موضوع واسع في الفكر الإسلامي الحنيف، فقد اشار علماؤنا وسلفنا الصالح (رحمهم الله تعالى) عن معاني الغربة وأنواعها في مشاعر الإنسان المسلم، وتناولوها بالشرح والتقسيم معتمدين على غربة المسلمين، ولاسيما أهل الصلاح والتقوى وهم ينشرون آيات الإسلام بين أهل الأرض. أو غربة أهل العلم والفضيلة وهم يعيشون بين جاهلين وجاحدين[2]. وفي كل هذا اعتمد اولئك وغيرهم على

(١) جماليات المكان: (اعتدال)، ص٥١.

(٢) ينظر: منازل السائرين : أبو إسماعيل الهروي (ت٤٨١هـ) ، بتحقيق الأب سي. دي لوجيه الدومنيكي، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ، ١٩٥٦، ٣/٨٨. غربة الإسلام: ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) . تحقيق-

ما جاء في حديثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس)[1].

ولم تكن أنواع هذه الغربة هي التي عرفت فقط، فالأدب ـ الشعر والنثر ـ عرف أنواعا أخرى للغربة؛ كانت منصبة على واقع حياة الأديب وانتاجه، فكشفت لنا حياتهم أنواعاً للغربة كغربة الحياة[2] وغربة الذات[3]، وغربة الشيب وكبر السن[4]، وغربة الحب والبعد عن الحبيبة[5].

وفي أنواع الغربة التي قدمنا فيها القول ـ الدينية والأدبية ـ لم يكن المكان بمنأى عن كثير من الأنواع، وهو قد يتداخل ولو بشكل غير مباشر مع انواع أخرى لاسيما التي تتعلق بالمجتمع وتقاليده الصارمة التي تفرض أنواع القيود لا يخرج منها الانسان طيلة حياته ، فيبقى غريبا وهو في وطنه. ورحم الله التوحيدي (ت٤١٤هـ) الذي قال في هكذا شخص (أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه)[6].

ومن خلال رصدنا لظاهرة الغربة في الشعر الأندلسي ـ مدة دراستنا ـ رأينا أن نحاور غربة الشاعر الأندلسي ـ المكانية ـ وأن نفك رموزها ومدلولاتها على وفق الفقرات الآتية:

١ ـ غربة الوطن المعاش.

-أحمد الشرباصي، مصر، ط١، ١٩٤٥، مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية (ت٧٩٥هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي الحنبلي ، القاهرة، ١٩٥٦، ٣/١٩٤ـ٢٠١.

(١) صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دمشق ، ١٩٥٥، ١/١٣٠.

(٢) كغربة الشاعر امرئ القيس عندما قتل والده حجر، وتركه في ضياع حتى وفاته ولم يأخذ بثاره او يعيد مملكة كندة.

(٣) كغربة أبي العلاء المعري في بغداد، ورجوعه إلى دمشق ولم يحقق شيئا مما كان يطمح إليه.

(٤) كغربة زهير بن أبي سلمى ، وهو واضح في معلقته:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يَعِشْ ثمانينَ حولاً لا أبالكَ يسأمِ

ديوانه: صنعة : الا علم الشنتمري ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، منشورات دار الافاق الجديدة -بيروت، ط٣، ١٩٨٠، ص٢٥.

(٥) منها تجربة شعراء النزل العذري، ومدى الصدق في تلك التجربة واقعاً وأدباً . ينظر :الغربة المكانية : ص٣٧.

(٦) الاشارات الإلهية: تحقيق د. وداد القاضي ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣، ص٨١، وانظر: ص ١٠٤.

٢ ــ غربة الشاعر الراحل عن بلده.

٣ ــ الغربة السياسية.

٤ ــ الغربة النفسية.

١ ـ **غربة الوطن المعاش**. بدءاً يمكن القول أن قصائد الغربة (تشترك بخصوصية واحدة ، هي أنها تعبير صادق عن الهموم الذاتية للإنسان)[١]. واتكالا على هذه المقولة، فإن الأبيات والقصائد التي نوردها نأمل فيها بيانا واضحا لتلك الهموم، بغية الكشف عن مفهوم الصدق الفني في النص الشعري ، بعد معرفة كوامن الصدق الذاتي ــ الشعوري ــ عند صاحب النص.

ابن حمديس الذي عانى الغربة كثيراً في أشعاره[٢]. نقف معه ليصور لنا مدى غربة الوطن المعاش. ونقصد بهذا الوطن الأندلس التي هاجر إليها بعد سقوط مدينته صقلية. فعن الغربة وشكواها التي ألحت عليه، وتركته في هم وسهر طويل يقول وقد حرض أهل بلده على الجهاد، ويحثهم على التمسك بموطنهم ويحذرهم من أن يجربوا غربة المكان:

فإنّ بلادَ الناسِ ليستْ بلادَكم ... ولا جَارُها والخِلُّ كالجارِ والخِلِّ

أعنْ أرضكمْ يغنيكم أرضُ غيرِكم ... وكم خالةٍ جدّاء لم تُغنِ عَن أمّ

أخِلّي الذي ودّي بودّ وصلتُهُ ... لديّ كما نيطَ الوليُّ إلى الوسمي

تقيد من القطر العزيز بموطن ... ومُتّ عندَ ربع من ربوعكَ أو رسمِ

وإيّاكَ يوماً أن تجرّبَ غُربةً ... فلَن يستجيزَ العقلُ تجربةَ السمّ[٣]

إن الألفاظ المشددة التي شاعت في الأبيات تركت ضربات موسيقية عالية نتيجة الأزمة والتشنج اللذين يعاني منهما صاحب النص. فيلاحظ القارئ تفاوتاً في حدة الصوت ، ومن ثم فارقاً في تشكيل الصورة والمبالغة في الإيحاء على اثر ما **تتركه اللفظة المشددة** في البيت الشعري، فمثل هذه الألفاظ (تمتلك القدرة على احداث متراليات صوتية تنهض

---

(١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : ص٥٦.

(٢) ينظر: ابن حمديس في المهجر: محمد مجيد السعيد، مجلة كلية الآداب ــ البصرة. ع٧، سنة ١٩٧٢م، ص ١٣٦.

(٣) ديوانه ص٤١٧.

لاثراء المفردة ، لاختراق قانون اللغة العادية نتيجة الفارق الذي يترك بصماته على جو القصيدة العام)[١].

وفي نص آخر لا يكتفي ابن حمديس بالنصح والارشاد ، بل؛ نراه يقف على الاطلال ويبكي الدوارس. فقد أصبح المكان عنده سارقا لماضيه الجميل، آخذاً به نحو كل ما يبكي ويؤلم ، هاك وقوله:

وهُو الحِمىَ سقيًا لأيامِ الحمىَ فإنها ولّت ولما ترجعِ
مالكَ لا تبكي بكاءٌ بالأسىَ بينَ رسوم وبوالي أربعِ
بأدمعٍ بينَ الجفونِ حُوّمٍ وأدمعٍ علىَ الخدودِ وقعِ
وزفرةٍ موصولةٍ بزفرةٍ تصعدُ عن نارِ حشيٌّ ملذعِ

وما زال المكان يثير في ابن حمديس مشاعر الغربة ويهيج اللوعة، فيبكي شجناً، ويتوجع واجداً:

وقفتَ في الدارِ بعينٍ لا ترىَ تغيّرَ الربعِ وأذنٌ لا تعي
ولوعةٍ بالشوقِ غيرِ لوعتي وأضلعٍ في الوجدِ غيرِ أضلعي
وإنما يبكي بكائي شجناً ووجعٌ بعرفُ فيه وجعي
لو انطقَ المربعَ وهو أخرسٌ تضرّعُ ، انطقَهُ تضرعي[٢]

وعند ابن الزقاق نرى معاني الغربة هنا وهناك في اشعاره ، على أننا ربما لا نعلم كثيراً عن أسبابها، وخفاياها، إلا أننا نحس بغربة صادقة وواقع مرفوض من خلال شعره. فعن طريق ربط غربة سيدنا يعقوب (عليه السلام) لفقده سيدنا يوسف (عليه السلام) . ومنها ابيضت عيناه من الحزن يصور لنا ابن الزقاق غربته في أبيات لم تبرأ من حسن، ولم تجانب الدقة في الوصف والتشبيه يقول:

لي سكنٌ شطتْ بهِ غربةٌ جادت لها عيناىَ بالمُزنِ
ما حسُنَ الصبحُ ولا راقني بياضٌ مُذ بانَ في الظعنِ

---

(١) النظرية التوليدية ومناهج البحث عند جومسكي د. عبد السلام المسدي. مجلة الفكر المعاصر، ع٤، سنة ٣، ١٩٧٨، ص٣١.

(٢) ديوانه: ص ٣٠٠، ينظر: ص٥٣٨.

كأنمـــا الصبـــحُ لنـــا بعـــدَهُ   عيـنٌ قـد ابيَضـتْ مـن الحُـزنِ[1]

وأما عن عصر الموحدين فإن غربة الموطن في هذا العصر صدرت عن أشعار (اتسمت بالصدق ورهافة الاحساس)[2]. هذا إلى جانب الثراء في العواطف الذاتية نحو المكان. ومن ثم تراكم هذه النصوص بكم هائل من الصور الابداعية التي أصبحت تشكل شيئا مألوفا بين أشعار الغربة، على مثل قول ابن صاحب الصلاة (٥٩٧هـ)[3] وهو يشد الرحال عن داره بعد أن أقعده الدهر، وألزمه المكان بما لا يليق به،على أن في الأرض متسعا إن قل المتسع وبين الناس صحب إن جفى أصحابه :

مسارحلٌ عن دارٍ نبتْ بـي ولـم يَقُـمْ   بها أحـدٌ بـي حيـنَ أقعدنـي الدهـرُ
ففي النـاسِ صَحبٌ إنْ جُفـانـي صـاحبٌ   وفي الأرضِ قطرٌ حـائلٌ إنّ نبـا قطـرُ
ألـم تـرَ أنّ المـاءَ بـالجري أزرقُ   وبالمكثِ في مستـنقعِ المـاءِ مصفـرُ
ورحلةُ أهل الفضـلِ عـن أهـل بلـدةٍ   شـهيدٌ بنقـصٍ فيـهم ولـها خُسـرُ
وشـرُّ بـلادِ اللهِ مـا لـم يكـنْ بِـها   معينٌ علىُ أن لا يستقرّ بِـها الحـرُ[4]

ويبدو أن الشاعر ابا الحسن الفضلي (ت٦٢٧هـ)[5]، سأم المقام بغرناطة وتمنى أن يعود إلى اشبيلية موطن أباه وأجداده، وهو بذلك لا ينكر حسن غرناطة واعجابه بها:

سـئمتُ المقـامَ بغرناطـةٍ   وألسـنُ حـالي بـهذا تنطـقُ
ومـا أنكـرتْ حسـنُها مُقلتـي   ولكنـها غيرَهـا تعشـقُ[6]

وعلى الرغم من أن عصر بني الأحمر شهد تغيرات كثيرة وتطورات هائلة في أمور الدولة وعلاقتها الخارجية التي بات العدو النصراني منها قاب قوسين أو ادنى.

---

(١) ديوانه: ص ٢٧١، وينظر: ص ٢٧٦.

(٢) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص١٠١.

(٣) هو ابو محمد عبد الله بن يحيى بن عبدالله بن فتوح الحضرمي. النحوي المعروف بعبدون وابن صاحب الصلاة. بلنسي رحل إلى شاطبة. انظر: تحفة القادم : ص ٩٠، المقتضب من تحفة القادم: ص ٦٨.

(٤) تحفة القادم: ص ٩٢.

(٥) ترجمته في : زاد المسافر: ص١٠٦، اختصار القدح المعلى: ص١٠٨. المغرب ١/٢٠٦.

(٦) زاد المسافر: ص١٠٦. اختصار القدح المعلى : ص١٠٩، المغرب: ٢/٢٨٧.

وشيوع الفتن الداخلية، وفشل النظام الحاكم في القضاء على اغلبها ، وإن تم له القضاء على بعضها فكان بمساعدة قوى خارجية جاءت من بلاد المغرب وأهله، أقول: على الرغم من ذلك كله فإننا بأزاء مواقف مختلفة بدرت عن الشعراء في هذي المدة. فأبو حيان مثلا آثر الرحيل صغيراً[1]، في حين أن ابن خاتمة يرى أن ما يلزم المرء مكانه وأن يصبر على ابتلاء الله سبحانه، فربما أراد له الخير على كثرة المحن والمصاعب التي قد تدور حوله (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)[2]: يقول:

الزمْ مكانكَ فالتغربُ ذلّةٌ لو لم تنلْ غيرَ القرارِ نجاحا
فإذا أرادَ اللهُ مهلكَ نملةٍ هيّأ لها كيما تطيرُ جناحا[3]

وربما لا نرى في البيت الثاني غير صورة بسيطة ساذجة، إلا أنها لا تخلو من إيمان، بقدر لا يسر، يفرضه واقع محمل بما سر ومحفوف بمكاره.

أما البلفيقي ، فيقول في وطنه المعاش، قد فقد الأهل والأحبة، وأفرغ عليه حزناً ودمعاً، بما يليق بهذا الفقد، فلم يبق لديه ما يفقده:

قالوا: تغرّبتَ عن أهلٍ وعَن وطنٍ فقلتُ: لم يبقَ لي أهلٌ ولا وطنُ
مضى الأحبةُ والأهلونَ كلّهُم وليسَ بعدهم سكنىً ولا سكنُ
أفرغتَ حزني ودمعي بعدهم فانا من بعد ذلكَ لا دمعٌ ولا حزنُ[4]

فلم التغرب من جديد بعد كل هذا الترح والأسى ؟ ولم اللجوء إلى مكان جديد؟ أو لا يثير فينا هذا المكان احساساً بما مضى، ومشاعراً بما فقدنا؟!

ولم تكن معاني ابن خاتمة ومعاني البلفيقي عن معاني ابن الخطيب ببعيد. فهو الآخر ــ على طول غربته ــ وتجافي أهليه المخلصين، من أصحاب الثقافات والفكر ووقوع ما وقع منهم. والطامة الكبرى أن تصدر مثل هذه الأفعال من تلك الشخصيات ، يظل ابن الخطيب ينصح بعدم ترك المكان الذي يقيم فيه الإنسان ، وأن يبقى المرء ــ

(١) ديوانه: مقدمة المحققين : ص١٢.
(٢) سورة البقرة: بعض الآية ٢١٦.
(٣) ديوانه: ص ١٣.
(٤) شعره: ص٨٠

ايا كان ـ يفكر أنه سينتقل إلى دار التراب ، وان الله سبحانه ـ سيجازيه على غربته، وتنكيل المكان به خيراً وحسنى، ما بقي صابراً محتسباً، هاك قوله:

إذا فكّرتَ في وطنٍ كريمٍ		نبتْ بكَ عنهُ نائبةُ اغترابِ
وعوّضكَ الزمانُ بشرِّ دارٍ		وسُكنى منزلٍ وحشِ الجنابِ
فابدَ بما انتقلتَ لهُ اغتباطاً		وفكّر في انتقالكِ للترابِ[1]

وفي أشعار ابن الخطيب ميدان واسع لآثار الغربة والحنين إلى ... الصبا. وما كان له في غرناطة ، وفي كل تلك الآثار نرى الشاعر يشكو من مكانه الجديد في تلمسان أو في المغرب عموماً. وهو إذ يسلي نفسه بذكر الريح، والنظر إلى جداول الماء، والتقليل من الشكوى غير النافعة ، فإن هذه الأمور كلها لا تخلو من دلالات خفية لمشاعر أخرى لا نراها غير الألم وفرط الحنين . وسأم العيش يقول:

هاتِ الحديثَ عن الركبِ الذي بانَا		هَل جاوزَ الشِّعبَ أم هَل يمّم البانا؟
أحبابنا أنْ نأتْ يوماً ديارُكُم		عنّا فما زلتُم بالقلبِ سكّانا
إذا دعتنا إلى السلوانِ بعدكُمُ		نفوسنا ، قامتِ الأشواقُ تنهانا
في ذمةِ اللهِ أحبابٌ لنا ارتحلوا		دانُوا محبّتهُم مثلُ الذي دانا
فإن شكونا إليهم ما نُكابدهُ		شكوا من البُعدِ عنا مثلَ شكوانا[2]

هذه مقدمة إحدى قصائده التي تذكرنا بأهله ، وتشعرنا بشكواه الدائمة، أن آثار الماضي المندثر لا تزال نصب عين الشاعر ، ولعل الأفعال الماضية في هذا الجزء من النص خير دليل على ما نقول فالأفعال (بان، نأت، زال، دعا، قامت، دين، شكى) ما هي إلا الماضي الجميل بكل ما فيه: اهلا، ومحبة ، ومكانا. وإن مجيء النص ـ كاملا ـ على بحر البسيط ساعد على بعث الأشواق ،ورسم صور التذكر فهو بحر (شديد الصلاحية للتعبير عن معاني العنف والتعبير عن معاني الرقة)[3]. فمن جانب العنف، فلا ادلّ على مأساته ومحنته ومقتله، ومن جانب الرقة فهو ما تركه لنا من أشعار مثل هذا النص ـ

(١) ديوانه: ص٣٠٢.

(٢) م.ن: ص ٥٩٦.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : د. عبد الله الطيب المجذوب . دار الفكر ـ بيروت . ط٢، ١٩٧٠، ٣٢٣/١.

تذكرنا به وبمكانه ــ المفقود والمعاش ، لكونها يمثلان الشخصية الإنسانية لابن الخطيب، ويحكيان مشاعره بلا زيف أو خطل.

٣ - غربة الشاعر الراحل عن بلده. ما أكثر الظروف التي تجبر الانسان على مغادرة وطنه وهجره. وربما تكمن الصعوبات الحقيقية، وتظهر العقبات الخفية عندما لا يجد المرء مكانا يحل فيه ، فتزيده الغربة آلاما ومره.

والشاعر الأندلسي ــ بغض النظر عن كل شيء ــ أضطر إلى مغادرة دياره، ومدينته، وما نقصده بهذه المغادرة أنه ترك بلاد الأندلس كليا وما عاد إليها فتوجه نحو بلاد إفريقيا كالسودان أو مصر، أو اتجه لبلاد المشرق كالعراق أو الشام أو الحجاز. وعلى أي كانت وجهته التي هو موليها، كيف كانت الأندلس بالنسبة لهؤلاء الشعراء ؟ وكيف كانت هواجسهم ومشاعرهم حين يسمعون بها، أو عنها؟؟

ابن جبير الشاعر الرحالة لا يكف في أشعاره عن النزعة الباكية لموطنه وبلاده، فهو لا يزال يتذكر بلده ويبكي لغربته ، وفي هذا التذكر يقول:

غريبٌ تذكَّرَ أوطانَهُ ... فهيّج بالذكرِ أشجانَهُ
يحلُّ بجراد عقودَ العزاءِ ... ويعقدُ بالنجمِ أجفانَهُ
ويرسلُ للغربِ من دمعهِ ... غَروباً لتسقي سكانَهُ(١)

وهو إذا ما زار دمشق تذكر أختها في الأندلس (غرناطة)(٢). ففاضل بينهما فوجد الأخيرة أقرب لنفسه، وأحب لهواه فراح يودعها ميزات فاقت المدينة المشرقية وتغلبت عليها:

يا دمشقَ الغربِ هاتيكَ ... لقد زدتِ عَليها
تحتكِ الأنهارُ تجري ... وهي تَنصبُّ إليها(٣)

هذه كانت من جملة مشاعر ابن جبير نحو وطنه، الذي رحل عنه، وزار بلدانا عدة غيره . إنه لا يجزع من البكاء عليه،ومن ارسال السلام لأهله. ومفاضلته على

---

(١) شعر ابن جبير : ص٩٧.

(٢) تُعرف غرناطة بدمشق الأندلس. ينظر: : المغرب : ١٠٢/٢ ، صبح الأعشى: ١١٤/٥، نفح الطيب: ١١٧/١، ١٤٦، ١٤٧، ١٧٦، ٢١٧/٣، ٢١٨.

(٣) شعر ابن جبير : ص ١٠٦.

سواه من الأمكنة. على أن تلك المفاضلة بين الشرق والغرب لم تستقر في عواطف ابن جبير، ولم يكفه انه الغرب مسقط رأسه ، وحكايات ذكرياته فقد كان المشرق بالنسبة إليه المأوى الذي آواه بعد ضياع، والحافظ لعلمه وأدبه بعد شتات ، فأثره على الغرب، راسماً لأيثاره بطلوع الشمس وغروبها، بصورة بصرية عرضها ابن جبير ، مستغلا صورة الشروق الصافية، وصورة الغروب المظلمة علماً أنه لم ينس أن هذه الصورة باقية سرمدية لان شروق الشمس من مغربها يعني زوال الشرق والغرب، ونهاية ابن جبير، بل؛ ونهاية الكون البشري بأسره ، يقول:

لا يستوي شرقُ البلادِ وغربُها ... الشرقُ حازَ الفضلَ باستحقاقِ
انظرْ لحالِ الشمسِ عندَ طلوعِها ... زهراءَ تصحبُ بهجةَ الاشراقِ
وانظرْ لها عندَ الغروبِ كئيبةً ... صفراءَ تعقبُ ظلمةَ الآفاقِ
وكفى بيومِ طلوعِها من غربِها ... أنْ تؤذنَ الدنيا بوشكِ فراقِ[1]

إن بناء الصورة على هذي العلائق بين الشرق والغرب، وبين شروق الشمس وغروبها ربما بدت واضحة عند الكثيرين من الشعراء الأندلسيين الذين رحلوا عن بلدهم أو الذين عاشوا في زمن الفتن في البلاد الأندلسية، وتمنوا لو أنهم ولدوا في بغداد أو دمشق فحفظت لهم مكانتهم ، وأخذت عنهم العلوم والآداب، وفي مثل هذا كان من حق ابن حزم (ت٤٥٦هـ) الفقيه الأديب أن يقول:

أنا الشمسُ في جوِ العلومِ منيرةً ... ولكنَّ عيبي أنَّ مطلعي الغربُ
ولو أنني من جانبِ الشرقِ طالعٌ ... لجدَّ علىٰ ما ضاعَ من ذكري النهبُ[2]

فالمكان الذي ولدنا فيه، ونعمنا بأجوائه وطبيعته ، لا يشترط فيه أن يبقى مأنوسا يبعث فينا الأمل، ويثير فينا السعادة، فلربما انقلب إلى تعس ونحس، وهنا لا نجد أنفسنا إلا وقد تعلقت بغيره، وأصبحت تناشده لتحيا فيه بحرية ونعيم، مهما كان بعيداً أو مستحيلاً!

(١) شعر ابن جبير : ص٧٣، وينظر: ديوان ابن خاتمة: ص٢٠٦.

(٢) شعر ابن حزم : جمع وتحقيق: عبد العزيز إبراهيم ، مجلة المورد ، مج٢٦،ع٢، ١٩٩٨، ص١٠١.

إن المواقف الإنسانية التي عبر عنها أبو العباس البناشتي (ت٦٣٥هـ)[1]، في غربته عن مدينته بليونش[2]، هي مواقف مشهودة لوفاء أهل الأندلس لبلدهم ولأهليهم. وهي مشاعر نبيلة تلك التي تبقي المودة، وتصون العهد، وتحفظ الجميل. فهو إذ ما ابتدأ قصيدته ابتدأها بالتذكر ومن ثم الصبر على هذه الذكرى التي لا تثير إلا حزنا، ولا تشعر إلا ألماً. يقول:

تذكرتُ من بغدادَ أقصى المغاربِ ... فجالَ نجيُّ الفكرِ بينَ التراقبِ
فصيرتُها نفساً تكادُ من الأسى ... تسرّب ما بينَ الدموعِ السواربِ
وقلتُ لئن كابدتُ ترحةَ راحلٍ ... فسوفَ يريكَ اللهُ فرحةَ آيبِ
فلا تيأسي من بعدِ قصّة يوسفَ ... ولو كنتَ قد جاوزتَ سدَّ مأربِ[3]

لقد استوحى الشعراء الأندلسيون من قصة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ معاني عدة[4]، ورسموا من خلال ما تعرضوا له ــ من شظف ونأي وشدة ــ ما تعرض له النبي الكريم، ومن هذه المعاني الغربة التي رآها أبو العباس البناشتي ما يعبر بصدق عن حاله بعيدا عن أهله، وما يتفاءل به لقرب العودة، ودنو الفرج.

وفي إطار المفاضلة لا يقدم أبو العباس مدينة على مدينته، لا جمالا على جمالها، ولا روضا على رياضها، وهو قد طاف البلاد ــ شرقها وغربها ــ فلم يذكر إلا موطنه. يقول:

أبليونشٌ لا جانبتْ روضك الصبا ... وجادَ على مغناكِ صوبَ السحائبِ
فما شعبُ بوّان ولا الغوطةُ التي ... زَهتْ برياضٍ بينها ومذانبِ
بأحسنَ من مرآكِ والبحرُ مُعرضٌ ... وقد جالَ فيهِ الطرفُ من كلِّ جانبِ

(١) حينما خلع أهل سبتة طاعة الموحدين سنة (٦٣٠هـ)، قدموا عليهم أبو العباس، فلما عادوا للطاعة، قبضوا عليه. ينظر: البيان المغرب٣/٣٣٨ ــ ٣٤٠.

(٢) بليونش: قرية كبيرة من قرى سبتة.. ينظر: الروض المعطار: ص١٠٣.

(٣) م. ن: ص١٠٣.

(٤) ينظر: القصص القرآني في الشعر الأندلسي: ص١٣٨ــ١٤٢، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي: د.محمد شهاب الحاني ــ بغداد، ٢٠٠٢، ص ١٠٨ــ١١٨.

لقد طفتُ في شرقِ البـــلادِ وغربِـــها فجانبَ طرفـــي غـــيرَ تلـــكَ الجوانـــبِ[1]

وحتماً، أن يكون الخلان والأهل، كراما حسان الوجوه، طيبي المعشر. فلا ينهى أبو العباس أبياته إلا بهم، باعثا سلاما عاطراً ما بقي حيا، متمنيا أن لا تطول يد الزمان لتأخذه دون رجعة إلى مكانه . إلى منصبه. إلى أهله.

إذا ما بقينا في عصر الموحدين، ستلقانا تجربة أخرى لشاعر اندلســـي عـــانى التغرب والرحيل عن بلده، ولكنه ظل يُعرف به وينسب إليه ، تلك هي تجربة ابن سعيد الأندلسي ، الأديب المؤرخ المعروف، لقد أدار ابن سعيد معاني غربته في الكثير مـــن أبياته وقصائده. ورأينا في الفصل الأول[2]. أن أثر البيئة الأندلسية بقيت عالقة في ذهن شاعرنا فراح ينظم في الأزهار والثمار، مستوحيا صوره من خزين ذاكرته في موطنـــه الأول – الأندلس-.

لقد كان ابن سعيد (الرحالة الطرفة الاخباري العجيبة الشان فـــي التجـــول فـــي الأقطار ومداخلة الأعيان والتمتع بالخزائن العلمية وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية)[3]. وعلىٰ الرغم من كل تلك البلاد التي زارها وتنقل فيها إلا أن الأندلس ومدنها لم تغـــب عن باله وفكره وشعره. فهو إذا ما رأى نيل مصر وازنه بنيل حمص (اشبيلية):

يا نيلَ مصرٍ ايـــنَ حمـــصَ ونـــهرُها حيـــثُ المنـــاظرُ أتجـــمُ تلتـــاحُ
فـــي كـــلِّ شـــطٍّ للنواظـــرِ مســـرَحٌ تَدعـــوا إليـــهِ منـــازحٌ وبطـــاحُ
وإذا ســـبحتُ فلســـتُ أســـبحُ خائفـــاً مـــَا فيـــهِ تيـــارٌ ولا تمســـاحُ[4]

وفي معظم قصائده نلاحظ شوقا عارما لبلاد الأندلس لحمص، لوادي الطلـــح[5]، للجزيرة الخضراء[6] وعل ما زاد في هذه الغربة ألماً ووحشة ما لاقاه ابـــن ســـعيد ـــ

(١) الروض المعطارص١٠٣. والغوطة هي قصبة في دمشق ، أو موضع متصل بها. ينظر : م. ن:ص٤٣.

(٢) ينظر ص٦٠ ، من الفصل الأول من هذه الدراسة.

(٣) نفح الطيب: ٢/٢٧٠ ــ ٢٧١.

(٤) م. ن: ٢/٣٠٦.

(٥) (بشرق أشبيلية، ملتف الأشجار، كثير مترنم الأطيار)، نفح الطيب: ٢/٢٨٥، الشعر: ٢/٢٨٦ــ٢٨٨.

(٦) مدينة مشهورة بالأندلس ، متصلة بأعمال شذونة.. ينظر: معجم البلدان: ٢/١٣٦، الـــروض المعطـــار: ص٢٢٣، الشعر:في نفح الطيب،٢/٣٠٨، وفي قوله يتشوق إلىٰ غرناطة: م.ن : ٢/٢٨٣ــ٢٨٥.

وهو الاديب ابن العائلة المشهورة بالعلم والادب ــ من جفوة الجوار . وضيق أخلاق الرجال الذين حل بينهم. هناك أبياته في مصر. وقد ساقت به الأقدار، وتركته في تيه وحسرة، وشكوىٰ غريب ضاعت حقوقه بلا عدل:

أصبحتُ اعترضَ الوجوهَ ولا أرىٰ ... ما بينهما وجهاً لمن أدريهِ
عودي علىٰ بدني ضلالاً بينَهم ... حتّىٰ كأنّي من بقايا التيهِ
ويحَ الغريبُ توحشّتْ ألحاظهُ ... في عالمٍ ليسوا لَهُ بشبيهِ
إنْ عادَ لي وطني اعترفتُ بحقّهِ ... إنَّ التغربَ ضاعَ عمري فيهِ[1]

وفي ارتباط بين الزمان والمكان ــ وما أكثر ما يرتبطان ــ بل . لا يفترقان . يطول ليل ابن سعيد وأمثاله ويتمنى أن ينقشع بصبح منير، أن يتبدد الظلام بعودة إلى الوطن، أن يزول الترح بفرح عميق. أن ينقضي يوم الفراق ليعود الثمل ويجتمع الأحباب ، يقول:

أيُّها الليلُ لا تؤملْ خلوداً ... عَن قريبٍ يَمحو ظلامَكَ صاحِ
ويلوحُ الصباحُ مشرقَ نورٍ ... فيهِ المستهامُ بدءُ نجاحِ
إنَّ يومَ الفراقِ بدَّد شَملي ... طائراً ليتَه بغيرِ جناحِ
حالكُ اللونِ فيهِ لونك فَاغربْ ... عَن عياني يا شبهَ طيرِ انتزاحِ
وإذا مَا بَدا الصباحُ فَما يُشبهُ ... إلّا لونَ الخدودِ المِلاحِ[2]

إنه أمل يعتلي النفس الإنسانية وطموح يراود هواجسنا عندما نفقد أماكننا التي ولدنا فيها، عندما نتعرض ــ قسراً ــ لترك أهلينا، عندما نكون أحياء أمواتا في آن واحد، عندما نبكي لذلّ الفراق ونتوجع لطول الاشتياق. في أبيات لابن سعيد حكاها علىٰ لسان والده يبصرنا بكل هذه المشاعر يقول:

أودّعُك الرحمنَ في غربتِكْ ... مُرتقباً رحماهُ في أوبتِكْ
وما اختياري كانَ طوعَ النوىٰ ... لكنني أجري عَلىٰ بُغيتِكْ

(١) نفح الطيب: ٢٦٢/٢.
(٢) م.ن.: ٣٥٣/٣.

فَـلا تُطـلْ حبـلَ النـوىٰ أنني   واللهِ، اشـتاقُ إلـىٰ طلعتِـكْ[1]

إنها شكوى الحال. عرف ابن سعيد كيف يجعلها مؤثرة مبكية، فأدارها على لسان والده، فعمقت فينا عواطف الأبوة الصادقة لاسيما وأنها قيلت عن بعد ونأي.

وفي عصر بني الأحمر، حيث كثرت الحروب وكانت الظروف السياسية مضطربة، وشهد أغلب الشعراء سقوط مدنهم بيد الأعداء. أضطر الشعراء إلى ترك بلادهم والرحيل عنها. إلا أن الشعراء الراحلين لم يكونوا ليعرفوا فضل أوطانهم، ومكانتهم إلا بغربة ممقوتة، وجيرة مرفوضة، فراحوا يذكرون أوطانهم ويبكون شوقا إليها، وحنينا لأهلها. أبو حيان الذي مر بغربة الجوار وغربة العلم. ما كانت فرقته إلا أسى، وما كان في مصر ــ البلد الذي حل فيه ــ إلا جسدا خاويا، أما روحه فبقيت في الأندلس، هناك موطنه الأول الذي ولد فيه. وأحبه، وغادره على استكراه. يقول:

يـا فرقـةً أبدلتنـي بالسـرور أسىً   وأسـهرتْ نـاظراً قَـد طالمَـا نعسَـا
أنّـى يكـونُ اجتمـاعٌ بيـنَ مفـرقٍ   جسـمٌ بمصـرَ وروحٌ حـلَّ أندلسَـا[2]

وأمام هذي الغربة المكانية، وما تبدل فيها من اهتمام بعلمه، وما أفقدته من مكانته بين الخلق، ما كان منه إلا النظرة الزهدية لهذه الحياة، بعد أن فقد مينته رابتـه. ربقي عرضة لتدابير القدر يصرفه بين كفيه أنى شاء وهو راضٍ محتسب. لنتأمل قوله، متذكرين آهاته ومصاعبه:

أعاذِلُ ذرني وانفرادي عَـن الـورىٰ   فلسـتُ أرىٰ فيـهم صديقـاً مصافيـا
ندمـاي كتـبٌ أسـتفيدُ علومَهـا   أحبَـاي تُغنـي عَـن لقـائي الأعاديـا
وأُنسُها القـرآنُ فـهو الـذي بـهِ   نَجـاتي إذا فكّـرتُ أو كنـتُ تاليـا
لقد جُلتُ في غربِ البـلادِ وشـرقِها   أُنَقّـبُ عَمّـن كـانَ للهِ دَاعيـا
فلَـم أرَ إلا طالبـاً لرياسـةٍ   وجمّـاعَ أمـوالٍ وشـيخاً مرائيـا
قبضتُ يدي عنـهم وآثـرتُ عزلـةً   عَن النـاسِ واسـتغنيتُ بـاللهِ كافيـا[3]

---

(1) نفح الطيب: ٣٠٨/٢.
(2) ديوانه: ص ٢٢٤.
(3) ديوانه: ص ٤٨٩ــ٤٩٠.

لقد أحسّ أبو حيان بالانقطاع والحيرة في هذا العالم المادي، فلجأ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ كنوع من المثالية التي تترفع عن كل ما هو مادي. إنه يصف غربته من خلال يأسه بموازنته بالإنسان المسلم ولهفه وراء الجاه والسلطة والمال فيفقد كل شيء فيتمنى لو يبقى هائماً في عالم من البراءة والصفاء..وحيدا منعزلا.

إن المكان بتداعياته الجديدة هو الذي فرض مثل هذا التشاؤم ، وهذه النظرة العدائية للناس . إنه ـ أي المكان ـ يحدد صراع الذات مع الآخرين، ويحدد مسارها ويملي عليها ما لم يكن بحسبانها ـ سلبا وإيجابا ـ.

وقبل أن نطوي هذي الصفحة من أنواع الغربة في الشعر الاندلسي ، نود أن نشير إلى أن أغلب النصوص الشعرية[1] التي قيلت في عصر بني الأحمر ركزت على عنصري الرحيل والوداع، وفيهما سخر الشاعر الأندلسي إمكاناته التعبيرية في سبيل وصف تلك الصدمة العنيفة تجاه من يحب ومن يريد، تلك الصدمة التي ما تزال توقد فينا جذوة المشاعر الإنسانية، وتضفي عليها عوامل الحرمان والفقد والبكاء . فتنتج شعراً يتشح بالمرارة ، ويتسم بالصدق وعمق التأثير.

٣ .الغربة السياسية. نشأت هذه الغربة كإحدىٰ افرازات لعوامل سياسية أهمها، سقوط المدن الأندلسية بيد الأعداء ، وما رافق ذلك السقوط من انهيار الأسر الحاكمة في تلك المدن. أو قد تنشأ لنزاع سياسي ما. وبغض النظر عن هذه العوامل. نظر الشاعر الأندلسي إلى نفسه فوجدها وحيدة ضعيفة أمام محن وفتن. فأثر بعضهم الرحيل ، وآثر آخرون الانزواء بعيداً عن القادم الجديد مسلياً نفسه بأوراقه وكلماته.

وعَلىٰ كلّ؛ فإن الشعر الذي نزف في هذه الغربة يشكل نسقاً متصاعداً في شدة الشكوىٰ وعظمة الفراق، وصعوبة البلوىٰ، فما عاد لأغلب الشعراء كيانهم الاجتماعي أو السياسي، وذهبت سلطتهم بذهاب ممدوحيهم من الأمراء والوزراء والقواد. ولذا بقيت أشعارهم شاهداً صدوقاً ليضعنا امام واقع اجتماعي مرير ، زادته التقلبات السياسية غربة وضياعاً وحرماناً.

في عصر المرابطين، سقطت مدن وزالت حكومات، ونُفي أقوام.. وكان الشاعر الأندلسي المسجل لكل هذا. فابن عبدون حين يرثي بني الأفطس ويبكي بطليوس حينما

---

(١) ينظر: ديوان الخطيب : ص٥٩٦،ص٣٢، ص٣٩٠، الاحاطة : ٣٧١/٢، الكتيبة الكامنة :ص٦٦، ص١٦١، نثير فرائد الجمان: ص ٢٩٦، نفح الطيب: ٣٠٢/٢، ٢٣١/٦، ٣٠/٧، أزهار الرياض: ١ ٢٥٠.

دخلها المرابطون يأتي في نهاية النص على حاله ، فلا يجدها إلا بين الليالي الطو ـــة، والسنن المعطلة ، والمحن الكثيرة ، يقول:

مَن لي ، ولا مَن، بِهم إنْ أظلمتْ نـــوبٌ ولم يكن ليلُها يَفضـــي إلـــى سـحرِ
مَن لي، ولا مَن ، بِهم إنْ عطّلتْ ســـننٌ وأُخفيـــتْ السنُ الآثـــارِ والســـيرِ
مَن لي، ولا مَن، بِهم إن أُطبقـــتْ مِحـــنٌ ولم يكنْ وردُها يدعو إلـــى صـــدرِ[1]

إن بناء الأشطر الأولى من الأبيات على وفق المعادلة الآتية:

* أسلوب الاستفهام (للتفخيم والتعظيم) ، ثم الجواب بالنفي مع: تعاظم الذنوب. تعطيل السنن. اطباق المحن.

ما كان ليأتي إلا عن نفس متأزمة غاية التأزم، تعيش في غربة حالكة . وتواجه مصيراً مجهولاً، ومستقبلاً قلقاً.

وقد وفّق ابن عبدون ــ إلى حد كبير ــ بجعله هذه الأبيات ضمن خاتمة النص، لأنها ستترك في نفس السامع وقعاً لا يُنسى ، كما أنه يبين مقصـــده، فلابـــد أن يكـــون الراثي قد فقد أشخاصاً وسلطة وعيشا. فيعرج عليهم الشاعر وهو يبكي ما فقده فيهم من وفاء وشجاعة وكرم.

أما ابن حمديس ، فقد خصص مدينته صقيلة بالكثير من القصـــائد والمقطعـــات حتى أطلق عليها د. احسان عباس (الصقليات)[2]، وعدّها الباحث نايف خالد الحسن من مراحل الغربة المهمة في حياة شاعرنا ابن حمديس ، لوفرتها وجودتها الفنية[3]. كـــانت صقلية تتمثل لابن حمديس بكل سبيل، وكل غرض، وتأتي مع أي حديث حتى (أن لياليه الخمرية واحتفالات النشوى مع أخوانه في الحانات والمواخير، واغراقه فـــي الشـــرب.

(١) ديوانه : ص١٥٠-١٥١.

(٢) ينظر: ديوانه (مقدمة المحقق) : ص ١٧ــ١٨، العرب في صقلية ، د. احسان عباس . دار المعارف – مصر ، ١٩٥٩ : ص ٢٤٤ــ٢٤٥.

(٣) ينظر : ابن حمديس الصقلي حياته وشعره: (رسالة ماجستير) كلية الآداب في جامعة بغداد. ١٩٧٠: ص٧٨ــ٨١.

واللهو ،لا تنسيه وطنه و تسليه عنه، فتراه وهو يسترسل مع راحه وأنسه وينصت في شبوق ونشوة إلى مغنيته التي تنشده أعذب الألحان..نراه في هذه الجلسة التي ينسى فيها الإنسان همومه ومشاكله وتغيب عنه أشجانه وتباريحه، يتذكر صقلية. فتتثير صورتها أمامه فيعصره الأسى ، وتهزه الذكرى ، فيبكي حسرة ولوعة)[1] يقول:

ذكــرتُ صقليـــةً والأســـىُ يـــهيّجُ للنفـــس تذكارهَــا
ومنزلـــة للتصـــابي خَلــتْ وكَــان بنـــو الظـــرفِ عُمّارهَــا
فــإنْ كنــتُ أُخرجــتُ مــن جنــةٍ فـــإني أُحـــدِّثُ أخبارهَــا
ولـــولا ملوحـــةُ مـــاءِ البكـــا حســـبتُ دموعـــي أنـــهارَها[2]

لقد كانت نكبة صقلية وسقوطها سنة (٤٨٤هـ) حدثا مأساويا في حياة ابن حمديس ظل يبكيه ويتألم لوقعه ، وزادت عليه غربته ــ الجبرية ــ الأسى. وعمقت جراحه. ففي رثاء أبيه الذي بعث له كتاباً يخصه على البحر ويتشوقه ، ما وجد الابن إلا البكاء، والتعلل بالغربة، والتسلي بساعة الوداع ، وما هذا إلا تحسر في تحسر. ودموع في دموع ، لنسمع قوله:

وما أنــسَ لا أنــسَ يــومَ الفــراقِ وأســـرارُ أعيننـــا فاشـــيه
ومـــرّتْ لتوديعنـــا ســـاعةٌ بلؤلـــؤ أدمعنَـــا حَاليـــه
ولـــي بـــالوقوفِ علـــىُ جمرهـــا وإنضاجـــهِ قَـــدمٌ حافيـــه
ورحـــتُ إلـــىُ غربـــةٍ مُـــرّةٍ وراحَ إلـــىُ غربـــةٍ ســـاجيه[3]

وفي صراخ ابن خفاجة المدوي، ما يبكي العيون ويدمي القلوب. فقد غزاها السّيد الكمبيطور سنة (٤٩٥هـ) وعاث فيها خراباً وتدميراً. وبكاء ابن خفاجة لمدينته ناجم عن تعلقه العميق ببيئته التي احبها، وخلدها شعره، وعَلّ أبيات الشاعر صدرت عن وعي ومسؤولية تجاه المكان الذي تغلغل في مشاعره ، ومن ثم أشعاره. وهنا يطيب لنا أن نناقش الصورة غير الواقعية لشعر ابن خفاجة والتي خرج بها دارس لشعره حين قال (والأغرب.. أن شُقر مدينة الشاعر التي ولد فيها، وله في اطرافها ضياع،

(١) ابن حمديس في المهجر: ص١٤١، وينظر: العرب في صقلية: ص٢٥٥.
(٢) ديوانه: ص ١٨٣.
(٣) ديوانه: ص ٥٢٣.

وهي من أعمال بلنسية التي افتتحها المحارب الاسباني (السيد) وحرّق قاضيها وبطش بسكانها العرب.. والشاعر في عنفوان شبابه.. فلم يعرض لجميع هذه الأحداث في شعره، ولم يخض غمراتها بسيفه)[1]. أقول: إن القصائد التي ورثناها عن ابن خفاجة وفيها ما فيها من البكاء والحسرة والآلام لتكفينا المؤونة ، وتلزمنا الحجة ، فنكبة بلنسية لا تأتي على كلمات شاعرنا وأوزانه وقوافيه فحسب، بل؛ (تأتي قطعاً من كبده، ومزعاً من قلبه حيثُ يبثّ همومه ولواعجه)[2]، يقول:

بيــنَ شُـقرٍ وملتقـــى نهريـــها حيـثُ ألقـتْ بنـا الأمـاني عصاهـــا
ويغنـــي المكـاءُ فـــي شـــاطئيها يســـتخفُّ النـــهى فَحلّـــتْ حباهـــا

على ان هذه الافتتاحية المفعمة بالغناء ، ولذة الحياة، وحركة الطبيعة المرحة بالأنهار والشواطئ ، لا تدوم واقعاً وأدباً، بل ؛ تأتي عليها الغربة، فتحجبها بالآهات، وتزينها بالفراق، وتحيطها بالدموع ، يقول:

آهِ مــن تجربـــةٍ ترقـــرقُ بشـــاً آهِ مـــن رحلـــةٍ تطـــولُ نواهـــا
آهِ مـــن فرقـــة لغـــير تـــلاق آهِ مـــن دارٍ لا يجيـــبُ صداهـــا
لستُ أدري ومدمـــعُ المُـزنِ رطـبٌ ابكاهـــا صبابـــة أمْ ســـقاها[3]

إن ابن خفاجة يضعنا في صورتين متناقضتين ، الأولى؛ كانت صورة الطبيعة التي عرفها وعاش في كنفها بين أطيارها، وتحت ظلالها، وعلى أشجارها، والصورة الأخرى؛ ما آلت إليه هذه الصورة من تغيّر وما شاهدته من تبدّل . اذ غدت هذه الطبيعة شؤماً، ورسمت ألماً واصبحت واقعاً مُراً. ولذا ينظر إليها ابن خفاجة حين الحسرة والاعتبار ، بعد أن كانت النظرة إليها مبهجة مفرحة، ولكن دوام الحال من المحال، فالأرض ليست الأرض، والديار ليست الديار، يقول:

(١) ابن خفاجة الأندلسي: ص ٦٦.
(٢) الأدب الأندلسي: (د. منجد) : ص ٣٣٦.
(٣) ديوانه: ص ٣٦٤_٣٦٥.

فـإذا تـردّدَ فـي جنـابك نـاظرٌ طـالَ اعتبـارٌ فيـكِ واسـتعبارُ
كتبتْ يـدُ الحادثـانِ فـي عرصاتـها لا أنـتِ أنـتِ ولا الديـارُ ديـارُ[1]

إنها بلوى ثقيلة عصفت بحياة ابن خفاجة ، وتركته في شجن مؤلم، كيف لا وهو يـرى مدينته قد خربت، وطالتها أيدي العابثين ! فالمكان ــ كما أسلفنا ــ يكتسب أهميته وحيويته من الأحداث التي تقع فيه، والأشخاص الذين يتأثرون ويؤثرون فيه تبعا لتلك الأحداث.

ولم يقتصر أمر الشاعر الأندلسي المغرب سياسيا على مسألة سقوط مدينته أو انهيار حكمها الداخلي، فقد تعرض بعض الشعراء إلى الغربة الجبرية بنفيه من مدينته والزامه المكنى في مدينة أخرى لدوافع سياسية بغيضة. هذا ابن البراق ، أبو القاسم محمد بن علي الهمذاني (ت٥٩٦هـ)[2]، ارغمه الأمير ابن سعد بن مردنيش (ت٥٦٧هـ)[3]، على ترك وطنه وادي آش لينتجع مرسية ثم بلنسية على كره وبغض ، وبقي في هذه الأزمة الضيقة إلى موت الأمير ابن سعد فعاد إلى بلده . ولنا في تجربته هذه أبيات نلحظ فيها مرارة الغربة ووجع الفرقة و(يشيع فيها شيء من النظرات الفلسفية حول الذات وعدمها)[4]، هاك قوله:

رثـوا القبـابَ بـأدمعٍ مفضوضـةٍ ذوى للفـراقِ واكبـدٍ تتصـرّمُ
فللنفـسِ فـي تلـكَ الربـوعِ حبيبـةٌ والقلـبُ فـي أثـرِ الـوداعِ مُقسّـمُ

---

(١) ديوانه: ص ٣٥٤. وشطر البيت الثاني أخذ من قول أبي تمام :

لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ خفّ الهوى وتولّتِ الأوطارُ

ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، تحقيق: محمد عبده عزام ، دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٥. ٦٨/٢.

(٢) أبو القاسم محمد بن علي الهمذاني، المعروف بابن البراق من أهل وادي آش، خرج منها في الفتنة فسكن مرسية ثم انصرف إلى بلده بعد موت ابن سعد ومات فيه. ينظر: تحفة القادم: ص ١١٢، المقتضب من تحفة القادم: ص٨٠، الذيل والتكملة:٤٥٧/٦، المغرب:١٤٩/٢، الاحاطة:٤٤٨/٢ ــ ٤٩١.

(٣) الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي ، ابن مردنيش، أمير شرق الاندلس تحرك من بلاد الموحدين فتغلب على جيان وأبذة ، وطاعت له بياسة، ونازل قرطبة، ثم اشبيلية عام ٥٥٤. وفي سنة ٥٥٧ وجه صهره ابن همشك لمحاصرة غرناطة فسد ما بينه وبين صهره بسبب ابنته، فاختل أمره ومال ابن همشك إلى الموحدين، فتوالى الحصار على ابن مردنيش فكر إلى مرسية وتوفي بها عام ٥٦٧. ينظر: أعمال الاعلام: ص٢٦١ــ٢٦٢، العبر وديوان المبتدأ والخبر: ١٦٦/٤، الاحاطة : ٤٨٩/٢.

(٤) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ١٣١.

هـل لـي بـهاتيكَ الظبـا إلماعـةٌ أم هَـل لـذاكَ السـربِ شـملٌ ينظـمُ؟
حقـاً فقـدتُ الـذاتَ عنـدَ فراقِـهم فالشـخصُ يُوجـدُ والحقيقـةُ تعـدمُ[1]

وإذا ما توغلنا في ثنايا الشعر الأندلسي على عصر الموحديـن ربمـا لا نجـد سمات ومعاني الغربة السياسية بصورتها الواضحة التي وجدناها في عصر المرابطين، فهناك عدد من الشعراء غادر الأندلس نهائياً إلى المشرق العربي او بلدان افريقيا كـابن جبير، وابن سعيد، كما أن معظم المدن الأندلسية قد سقطت في هذا العهد. فأصبح الشعر فيه لا يُعنى بالغربة السياسية بحد ذاتها ، بل كان إلى البكاء والرثاء أقرب.

أما عن عصر بني الأحمر؛ فقل فيه مثلما قلناه في العصر السابق، فقـد ظـل الشاعر الأندلسي يبكي مدنه التي لم يحافظ عليها من قبل ، ويندب حظه الذي صيره إلى هذا القدر المشؤوم. وعلى الرغم من هذا، فإن هناك نصاً شعريا مكونا من تسعة أبيـات لابن الأحمر، يوكد فيه غربته التي سببها له أبناء عمه من الملوك الأحمريين والسلاطين الناصريين، إلا أن معاني الحنين والشوق والدموع الباكية والجفون المفجعة هي التـي غلبت على النص[2].

في النصوص السابقة التي استشهدنا بها لموضوعة الغربة السياسية، وما حلبتـه من شكوى وأنين على الشاعر الأندلسي تمحورت ومعاناته الأدبية فضلا عن معاناتـه الاجتماعية والاقتصادية، كان المكان فيها مغيباً وراء تلك المعانـاة، وخلـف هـاتيك المشاعر التي ازدحمت بشكل مهم وكبير في تلك النصوص . وكم لاحظنا أثر التغير في المكان في تنامي تلك المشاعر وفي جريان علاقات الشاعر الأندلسي بمجتمعه وجماعته في مسار جديد يفرضه ذلك التغيّر ، فـ (التغيّر الذي يصيب المكان سيؤثر حتماً علـى البناء النفسي والعقلي للفرد والجماعة ، وسيعيد صياغة قيم جديدة تتفـق مـع رحلـة التغير)[3].

٤ .الغربة النفسية. ولدت هذه الغربة في الشعر الأندلسي إثـر الاحباطـات النفسية والهزات (السايكولوجية) التي يتعرض لها الشاعر الأندلسي. وعلّ سائلاً يسـأل: ألم تكن أنواع الغربة الأخرىُ مبعثها العامل النفسي غير المستقر تبعاً لعـدم اسـتقرار

(١) الاحاطة: ٢/٤٩١.
(٢) ينظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري: ص ٢٥.
(٣) دلالة المكان في مدن الملح: ص ٢٦.

الأحداث والظروف حول الشخصية الأندلسية؟ أو باحثاً يقول: ألا تخضع مواقف الشعراء من المكان لموقف الأثر النفسي ، ومدى تفاوته سلباً وإيجابا على تلك المواقف؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها نقول: إن المادة الشعرية التي ظفرنا بها من تركة الشعراء الأندلسيين ، وإرثهم الباقي ـ مدة دراستنا ـ يدلنا دلالة حقيقية على جميع مسميات الغربة التي اقترحناها ، ويحاور الظاهرة المكانية ـ موضوع الدراسة ـ ويكشف عن سماتها وخصائصها من خلال تلك المسميات. وسيأتي باحثون اخرون في قابل الأيام والأعوام ليكشفوا لنا عن معان ومسميات جديدة للغربة تشيرها موضوعاتهم، فيعالجونها ـ وهذا واجبهم ـ من وجهة نظر تلك الموضوعات. وما تتبناه من طروحات فكرية وأدبية، وبالجملة فإن دوافع الغربة النفسية لم تبعد بعيدا عن دوافع أنواع الغربة التي تطرقنا لها من قبل، أما المشاعر التي أفصح عنها الشاعر الأندلسي في غربته هذه فكانت:

ـ **مشاعر عامة** تجسدت في : البكاء، والصراخ، واستعادة الذكريات الجميلة التي مضت دون عودة.

ـ **مشاعر خاصة** تجسدت في : نقمة الدهر، وتبدل الزمان ، والمكان وملابساته الجديد وملابسته وتناقضاته التي تجعله يثير الحسرة ، ويبعث اليأس، ويدل على المحن والكوارث.

وحتماً؛ إن عوامل الغربة مهما كان نوعها ـ تزداد حدة وانفعالاً كلما زادت عوامل القلق والاضطراب من حولها، والشاعر الأندلسي منذ عصر المرابطين حتى نهاية غرناطة وعصرها، واجه تقلبات كبيرة وأزمات عدة، ابتدأت بانحسار مضمار الأدب ، وتراجع دور الحركة الثقافية ولا سيما الأدبية في المجتمع الأندلسي وما لاقاه الشاعر والأديب من أهمال وحرمان، انتهت بضياع وطنه ، وبضياع هذا الأخير فقد الأندلسي ـ عموماً ـ ، والمبدع ـ خاصة ـ عزه ومجده ،وأفل نجمه إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن الغربة النفسية تتضمن بين ثناياها جملة اتجاهات : كالغربة من الدهر[١] أو من فراق لحبيب[٢]، أو تغير الزمان وضيق أخلاق الرجال[٣]، إلا أننا نختص بأهمية المكان في حديثنا هذا، وما يؤديه من أثر في تكوين مشاعر الغربة وتأجيج عواطفنا نحو الشخص الغريب نفسيا وتحليل شخصيته وانتاجه.

في قطعة لأبي الأصبغ عيسى بن محمد العبدري (ت٥٧٦هـ) المعروف بابن الواعظ[٤]، تتجسد غربته النفسية بشكواه من مدينة ألش[٥] التي سكنها. ومن جفوة أهلها واهمالهم لمنزلته الأدبية والاجتماعية (مصوراً استيحاشه النفسي وعزلته عن قومه حتى غدا كأنه في الحبس، وهم فوق ذلك لا يعون ما يقوله ولا يفهمون لسانه)[٦]. يقول:

عدمتُ باخمالي وجوهاً من الإنسِ ... فها أنا في الأيامِ مستوحشُ النفسِ
برئتُ زماناً من حوادثَ أمرضتْ ... وألشُ لَعمري أسلمتني إلى النكسِ
أقمتُ بِها كالسيفِ لازمَ جفنَه ... وإن كنتَ حيّاً مثلَ مُودَعٍ في رمسِ
فإني بآدابي أتيتُ جزيرةً ... فعوقبتُ منها بالإقامةِ في حبسِ
وهَل وحشةُ الإنسانِ إلا بمثلِها ... فصيحَ لسانٍ بين ألسنةٍ خُرسِ
شَروني رَخيصاً ليسَ يدرونَ قيمتي ... وقد تُشترى الأعلاقُ بالثمنِ البخسِ[٧]

الاضطراب والتردد والخوف والقلق المزروع بهذه الأبيات يحمل مرارة عميقة يحسها الشاعر الذي يعيش بين أناس لا يعرفون أهميته ، ولا يقدرون موهبته. وهذا ما يجعله حاقداً على الدهر . ناقماً على مكانه الذي فرض عليه هذه الحياة، وهؤلاء الناس.

---

(١) ينظر: ديوان ابن خفاجة: ص ٢٧٨، ديوان ابن الزقاق: ص ٢٣١، زاد المسافر: ص١٢١، نفح الطيب: ٤٩١/٢.

(٢) ينظر: شعر ابن السيد: ص ١١٢ـ١١٣، ديوان الأعمى التطيلي: ص ٧٨، شعر أبي جعفر بن سعيد: ص١٤١؛ ابن الجياب (حياته وشعره): ص٢٦١ـ٢٦٣ (والأشعار في : الاحاطة: ١٣٤/٠:؛ نفح الطيب:٢٨/٥؛ـ٢٩؛) ؛ ديوان يوسف الثالث: ص٧٧ـ٧٨.

(٣) مرّت بنا تجارب في هذا الموضوع، كتجربة ابن سعيد، وتجربة أبي حيان.

(٤) للمزيد من شعره ينظر: تحفة القادم: ص٨٣ـ٨٥، المقتضب من تحفة القادم: ص٦٣.

(٥) ألش: من كورة تدمير. بينها وبين أريولة خمسة عشر ميلا .. ينظر: الروض المعطار: ص٣٠.

(٦) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص٢٢٨.

(٧) تحفة القادم: ص ٨٣، المقتضب من تحفة القادم: ص ٦٣.

لقد تعالت الأصوات الصفيرية في القطعة ، ففضلا عن السين ـ الروي ـ فقد انتشر معه صوتا الزاي والصاد. وهذه الأصوات تعمل على إشاعة نسق صوتي عال، في النص ، وهذا ما أراده ابن الواعظ. فالتشكيل الصوتي العالي، والبنية التركيبية ـ المقطعة ـ .. وما تزاحم فيها من صور ، كلها أمور عملت على أخراج القطعة بصورة أثرت في متلقيها، وتركت بصمات صاحبها في عواطفنا وقلوبنا.

وقد تكون عوامل القلق والاضطراب نابعة من جهات أخرى غير التي رصدناها في شعر ابن الواعظ والتي كانت أغلبها تعود لمسائل ذووية ، وأزمات شخصية . فالشاعرة الشّلبية أمّ الهناء (ت٦٠٩هـ)[1] اشتكت مدينتها شِلب[2]. لاستبداد جباتها وأصحاب الخراج فيها. بعد أن سعى هؤلاء إلى جباية الضرائب وجني الأموال من أهليها بالاكراه، تقول موجهة شعرها إلى الخليفة المنصور من ملوك الموحدين:

قَدْ آنَ تبكي العيونُ الآبيهْ … ولقد أرىُ أنَّ الحجارةَ باكيهْ
يا قاصدَ المصرِ الذي يُرجى بهِ … إنْ قدّرَ الرحمنُ رفعَ كراهيهْ
نادِ الأميرَ إذ وقفتَ ببابهِ … يا راعياً إنَّ الرعيةَ فانيهْ
أرسلتهما هملاً ولا مرعى لها … وتركتَها نهبَ السباعِ العاديهْ
شِلب كلا شِلب وكانتْ جَنّةً … فأعادَها الطاغونَ ناراً حاميهْ
خَافوا وما خافوا عقوبةَ ربِهم … واللهُ لا تَخفى عليهِ خافيهْ[3]

وعلىُ الرغم من أن الأبيات تطغىُ عليها تقريرية واضحة ، وتبدو الصيغ النثرية فيها مشاعة، لاسيما في محاكاة الفاصلة القرآنية بحرف الروي الياء الموصول بالهاء، إلا أننا لا نجد مشقة في استكناه دلالات الغربة النفسية، فإذا كان أهل شِلب يشكون الظالم سرّاً، ويضيقون ذرعاً بجباة الأموال ، فإن الشاعرة كانت جريئة صريحة في إذاعة هذه

(١) تُعرف بمدينتها ، وكنيتها إما أخبارها فقليلة. ينظر: نفح الطيب: ٢٩/٦ ـ ٣٠ ، الأدب الأندلسي ـ موضوعاته وفنونه ـ:ص:٢٣٢ ، الشعر النسوي في الأندلس: ص١١٨، الشعر النسوي الأندلسي (أغراضه وخصائصه الفنية): ص١٢٦.

(٢) شِلب: هي قاعدة كورة اشكونية، وهي بقبلي باجة، بينها وبين قرطبة عشرة أيام، وبينها وبين بطليوس ثلاث مراحل. وقيل لا يوجد بالأندلس بعد اشبيلية مثلها. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٤٢. معجم البلدان : ٣٥٨/٣.

(٣) نفح الطيب: ٢٩/٦ـ٣٠، الأدب الأندلسي ـ موضوعاته وفنونه ـ:ص٢٣٣.

الشكرىٰ علىٰ مسامع الخليفة ــ ولي أمير المسلمين ــ فانتصرت لنفسها وأهلها، فالوثيقة التي قدمتها ــ الشعر ــ هي وثيقة اجتماعية وانسانية قبل كل شيء.

إن المكان في النص حمل دلالة العراء، بسبب تصرفات القائمين فيه ، ولذا وجدت الشاعرة هروباً إلى الممدوح (السلطة العليا) من كل ما يعتري شلب من احداث وظروف أساءت إليها وجعلتها مكانا ظلوماً جالباً الظلم والبغي لأهله بغير حق أو عدل.

وأخيراً، لنا اطلالة على ديوان ابن فركون لنضع نصاً من شعره على مائدة الغربة النفسية فنجول بين خصائصها ، ونعرف أثر المكان فيها. هذا النص كتب أثناء الحرب لتحرير جبل الفتح (جبل طارق)، وفي سفر ابن فركون الذي يبدو أنه كان طويلاً فأثقل مضجعه، وأسهر جفنه ، وعلى أية حال، إننا لنشعر أثر الحرب في هذا النص والذي بعده. فظروف المعركة من رؤية الصعاب والهلاك، والوقوف جنباً إلىٰ جنب أمام الموت، واضحة بينة. وما ينتجه مكان المعركة في نفس المحارب من انفعالات نفسية نتيجة البعد عن الديار والمخاوف العميقة التي يتركها العدو ، والحالة النفسية المتأهبة لقتاله ومباغتته، لا يخفىٰ علىٰ قارئ شعر ابن فركون للوهلة الأولىٰ.

يقول ابن فركون:

هَل بَعد طول تغربي وفراقي أرجو اللقاءَ ولاتَ حينَ تلاقِ؟!
لما رحلتُ عَن المنازلِ لَم يزلْ سُكنىٰ الغرام بقلبي الخفّاقِ

يشكو ابن فركون في الأبيات الأولىٰ طول النوىٰ والبعد عن الأهل والأحباب . والاستفهام الذي يريد جواباً في البيت الأول أعقبته جملة من المفارقات التي لا تخرج عن موضوعنا الغربة النفسية بكل مسمياتها ومدلولاتها . فالبعد يستدعي الشوق والحنين، يقول:

يا حادي الأظعانِ مالكَ والسرىٰ اللهَ في الرمقِ الذي هُو باقِ
هي دوائرُ أحبابي ومَوضعُ صَبوتي ومَحلُّ جيراني وربعُ رفاقي

والشوق والحنين مع البعد وطول الغربة يستدعي الحسرة، وضياع الأمل ، ويجلب اليأس :

يا سائلي عن شرحِ حالي ليتني ... لو كنتُ ألقي بعض ما أنا لاقِ
ماذا أقولُ وطولُ كبتي لا يُفي ... بحديثِ ما عندي من الأشواقِ(1)

وهذا النص بما فيه من هذه التداعيات الباكية المؤلمة استدعى نصوصاً أخرىٰ ، فتغيرت القافية واستبدل حرف الروي ، وبقيت المشاعر، وزاد الانفعال، وأنثالت صور الغربة الحزينة وتعددت ألفاظها، وأساليبها ، يقول:

أحبابنا هل لنا بعدَ النوىٰ طمعُ ... في القربِ أو هَل زمانُ الأُنسِ يَرتجعُ
إذا تذكّرتُ ما بيني وبينَكُمْ ... يكادُ قلبي من ذكراهُ ينصدعُ(2)

وقلنا في أثر الحرب على نصوصه، أن صورة الهلاك لا تغيب، وأمل اللقاء بعيد...:

ففرّقَ الدهرُ ظلماً بيننا وغَدا ... مَا كَانَ طوعَ يدينا وهُو مُمتنعُ
ما كانَ ظني أنّ القربَ يعقبُهُ ... بُعدٌ ولا أنّ طولَ الوصلِ ينقطعُ(3)

إن المكان الحربي كان وراء كل هذه المشاعر من غربة ويأس وُبعد وحنين، كما أن قصيدة الحرب تضم بين ثناياها لوحات عدة، ومضامين شتّىٰ ، فهي تقدم مدحا للقادة والأبطال ، وتهتم برثاء الشهداء وتأبينهم، وقد تنتج بعض الأخوانيات مثل العتاب والاعتذار بين الشاعر ونفيٍ من أقرانه ولداته، وهي تفرز غربة نفسية موجعة متصلة باللوحات الماضية ـــ شكلاً ومضموناً ـــ . ولذا وفق ابن فركون في شعره الحربي فجعله يدور في أغلب الأغراض ، مشتملاً على معظم الصور . ومن هنا كان شعره الحربي كباقي شعره متينا، أصيلاً من النواحي التركيبية والدلالية والصوتية.

(1) ديوانه: ص ٢٥٩.
(2) م. ن: ص ٢٩٥.
(3) م. ن: ص ٢٦٠.

ب ـ الحنين. إن نزعة الحنين إلى الأوطان نزعة وجدانية إنسانية تشمل كل العهود ومختلف الأزمان. وسواء أكانت هذه النزعة الوجدانية تتمثل في الحنين إلى مدينة الشاعر ـ المكان الأم ـ أم تتمثل في الحنين إلى الأهل والأحباب والخلان ـ المكان الذكرى ـ أم تتمثل في الحنين إلى مدن أخرى ، وأناس آخرين ـ المكان البديل ـ فإن المشاعر تبقى هي هي، من حيث شدة الوجد، ومعاناة البعد، وبكاء الأطلال وشكوى الزمان فالحنين (تعبير عن رغبة ذاتية صادقة في رؤية الموطن الذي نشأ فيه الشاعر، وما فيه من اهل وأصحاب مشوبة بخلجات وجدانية، وأحاسيس مرهفة تثير الأسى والندم لفراقه والحسرة على نعيمه)[1].

لقد قدمنا القول في حديثنا عن الغربة أنها تستدعي حنيناً وشوقاً إلى الوطن الأصلي. وتبكي فراقه ، وتتأسف لذكرياته ، وتندب بعده وفقده. وعلّ بلداً عانىٰ مما عانىٰ من ضياع لمدنه، وانتهاك حقوق أهله ، وتشرد لمثقفيه ومبدعيه كالأندلس جعلت مقيميه في سفرٍ وترحال، وفي طول هجرة ونأي عن الوطن الذي ولدوا فيه، وعُرفوا به، لقد ظهر شعر الحنين في الأندلس في بداية الدولة الأموية[2]، حتى مع الجند والقواد الذين أتوا محررين ناشرين أضواء الإسلام في هذي الربوع الخضراء. والقطعة التي قالها الأمير عبد الرحمن الداخل (ت١٧٢هـ) عندما نظر إلىٰ نخلة، فهيجت أشجانه وتذكر موطنه، تكفينا همنا في معرفة المشاعر الإنسانية التي تقف وراء الحنين. وما يعتلي النفس عندما ترىٰ ما يذكرها بوطنها،وأهلها، ويثير في كوامننا عواطف الغربة القاسية، ومشاعر الحنين المؤلمة، يقول الداخل:

تبدّتْ لنا وسطَ الرُّصافةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغربِ عَن بلدِ النخلِ
فقلتُ: شبيهي في التغربِ والنوىٰ ... وطولُ اكتئابي عَن بنيّ وعَن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الأقصاءِ والمنتأىٰ مثلي[3]

إن النخلة هنا تحولت إلىٰ رمز للبيئة التي تكثر فيها وتعرف بها وهي المشرق ، موطن الشاعر وبيئته الأولىٰ. فهذه النخلة تحولت إلىٰ دلالة نفسية أثارت لدىٰ الشاعر دوافع

(١) القصص القرآني في الشعر الأندلسي : ص ٢٠١.
(٢) ينظر: مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١٣٥.
(٣) نفح الطيب: ٣/٥٤.

الشوق والحنين ، وتمنى لو كانت رؤيته لها في بلده الذي اعتاد أن يراها فيه، وألف مكانها هناك وأحبه.

وعلى أساس هذا العامل النفسي راح شاعرنا الأمير يطيل الوقوف أمام هذا الرمز ــ المتكلم الصامت ــ فيبادله الحديث ويشكو له الحال. إذ اشتركا ــ الشاعر والرمز ــ بأواصر الحزن المختلفة كالبكاء وطول الاكتئاب والنأي والحنين.

وعلى أية حال ؛ لم تبق مشاعر الحنين كما هي في العصر الأموي فقد شهدت تطوراً ملحوظاً في العصور التي تلت هذا العصر، سواء أكان هذا التطور يختص بأغراض الشعر الأندلسي وموضوعاته، أم كان يعنى بالنص الشعري نفسه ومدى تأثره بهذه المشاعر في البنية والصورة والصوت.

لقد مرت الأندلس منذ عصر المرابطين إلى سقوط غرناطة بالفاجعة تلو الفاجعة ، والنكبة خلف النكبة، ولقد تحدثنا في الفصلين السابقين عن هذه العصور ما حدث فيها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإدارياً. ولذا ، فلربما تكون الأسباب التي تدعو الشاعر للرحيل عن بلده كثيرة إذا ما ارتبطت بهذه الأحداث أولا وآخرا. وعلى هذه الشاكلة فإن أنواع الحنين اتسعت وشملت نواحي أخرى لم تكن موجودة في العصر الأموي ، لاسيما بعد سقوط المدن واضطرار الشاعر لترك مدينته والبعد عنها والشوق إليها. فما أن انتهت دولة الموحدين حتى (سقطت معظم المدن الأندلسية بيد الاسبان. وأدى الأمر بالتالي إلى ازدياد هجرة الأندلسيين من ديارهم وترك أوطانهم ، مما أفاض الدموع في أشعارهم، وزاد من شدة اللوعة، وتوهج الحسرة ، والشوق والمعاناة)[1].

إن الحنين الأندلسي يُدمي القلوب ويُبكي العيون، فأنت لا تعرف أتبكي من تلك المشاعر، والخلجات والآهات من جهة الشاعر ــ الإنسان المتألم الباكي ــ أم تبكي على تلك الحضارة التي ولت. وأندثر منها أسماء منشيئها، ومحي منها كل ما يمت إلى أصحابها الحقيقيين بصلة. ومن هنا كانت وقفتنا على المكان الذي أنتج هذه الآهات والانفعالات وقفة مؤلمة ومعالجة الأفكار والعواطف التي ينطوي عليها شعر الحنين في الأندلس معالجة محزنة مبكية، إن هذه المعالجة فرضت علينا تقسيم حنين الشاعر الأندلسي، وشوقه الى المكان الذي تركه إلى قسمين اثنين[2]:

---

(١) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص ١٣٥.

(٢) قسم د. عدنان مصطفى صالح الحنين إلى نوعين : الحنين إلى الوطن الكبير والحنين إلى الوطن الصغير. ينظر: في الشعر الأندلسي: ص١٠٧ــ١١٧.

١.الحنين إلى مدينة الشاعر مكانه الأول (المكان الأم).

٢.الحنين إلى معاهد الصبا، ومواطن الأهل والخلان والأحباب(المكان الذكرى).

لقد كانت (الاندلس ــ عند أهلها ــ جنة الله في أرضه، وهم حيث ذهبوا لا تغادرهم صورة بلادهم ، ولا يملون من ذكرها والتشوق إليها.. وهذا التصور من الشعراء لبلادهم قديم، يرجع إلى الوافدين الأوائل: موصول إلى آخر زمان المسلمين في الأندلس)[١]، ولذلك صدحت حناجرهم بذكر مزاياها، ووصف مفاتنها ، فكانت عندهم الحب الذي يفوق كل حب، والجمال الذي يعلو أي جمال . يقول فيها ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسية المعروف ، وجنانها المشهور:

إنَّ للجنةِ بالأندلسِ ... مُجتلى حُسنٍ وريّا نَفَسِ
فَسنا صُحبتِها من شنبٍ ... ودُجى ليلتِها من لعسِ
فإذا ما هبتِ الريحُ صبا ... صحتُ واشوقي إلى الأندلسِ[٢]

وكم نلحظ أثر الشوق إلى الأندلس في الأبيات الماضية ، لاسيما بعد ان ذكر مزاياها وما يكون في ليلها وصبحها، ولا يقف ابن خفاجة عند هذه الحياة التي مهما طالت فإن مصيرها الفناء، ومهما كانت جميلة فنهايتها الزوال ، بل؛ يخاطب أهل الأندلس ــ جميعا ــ أن جنة الخلد في ديارهم ، وأنهم إذا ما أختاروها موطناً ،لا يخشون أن يدخلوها بعدها ناراً، أو يعرفوا عذاباً ، يقول:

يا أهلَ أندلسٍ لله دَرُّكُمُ ... ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّةُ الخلدِ إلّا في دياركم ... وهذه كنتِ لو خيّرتُ أختارُ
لا تتّقوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليسَ تدخلُ بعدَ الجنّةِ النارُ[٣]

أما أبو عبد الله محمد بن سفر المريني، فقد عمد إلى التجزيئية في رسم الصور التي التقطها الأندلس . واهتم بالتفصيل عن كل ما في تلك الأرض من أنهار وأشجار ورياض ، وقدم (صفات حسنة أخرى من صفات الأندلس وهي صفات وخصائص كافية

---

(١) في الأدب الأندلسي: (الداية) : ص١٣٢.

(٢) ديوانه: ص١٣٦.

(٣) ديونه: ص٣٦٤، وينظر، مجموع شعر الرندي : ص ٧٠٥ــ٧٣٣.

لتجعل كل من يعرفها يتعلق بها. فكيف بأبنائها والمستظلين من أجيال عتيقة بظلها؟)[1]، يقول:

في أرضِ أندلسٍ تلتذُّ نعماءُ ولا يفارقُ فيها القلبُ سرّاءُ
وليسَ في غيرِها بالعيشِ مُنتفعٌ ولا تقومُ بحقِّ الأنسِ صهباءُ
واينَ بعدك عن أرضٍ تحضّ بها عَلَى المُدامةِ أمواهٌ وأفياءُ؟
وكيفَ لا يبهجُ الأبصارُ رؤيتَها وكل روضٍ بها في الوشي صنعاءُ
أنهارُها فضةٌ والمسكُ تربتُها والخزُّ روضتُها، والدُّرُّ حَصباءُ
....
....

وعلى هذه الشاكلة من الحسن والجمال ، تأتي أوصاف الهواء والماء والظلال والأغصان والأطيار، حتى ينتهي بنتيجة تخالف قوانين الأرض، وتعاكس آراء الناس عندما يجعل الأندلس الرياض الوحيدة، وكل الأرض صحراء جرداء قاحلة، فيقول:

فيما خلعتَ عذاري ما بهِ عوضٌ فهي الرياضُ، وكلُّ الأرضِ صَحراءُ![2]

(فهذا شعور عارم من ممثل فنان، ينوب عن أهل الأندلس جملة في التعبير عن التعلق بالاندلس ، وفي النظر إلى بلادهم على أنها جنة الأرض بلا منازع)[3].

فمن كانت هذي بلاده، وكان هذا تعلقه بها، وشدة حبه لها، فكيف سيكون حنينه إذا ما ابتعد عنها، أو اضطر للسفر خارجها؟ وكيف سيرى المكان الجديد ــ مهما كان ــ بعد أن أسبغ على مكانه الأول كل هذه الصفات؟ وحمله كل هذي المزايا من حسن الجو، ودنو الظلال ، وتدفق الأنهار؟ بل ورسم حتى معالم المكان الأخروي من النعيم المقيم، والعيش الرغيد، و .. و ..؟؟

١ ـ الحنين إلى مدينة الشاعر (المكان الأم). يبقى مكان الشاعر الأول، وموطنه الذي ولد فيه يمتلك حضوراً خاصاً في وجدانه وفي شعره. وتظل مدينته التي نشأ فيها

(١) في الأدب الأندلسي : (الداية) : ص١٣٣.
(٢) نفح الطيب: ٢٠٩/١ــ١١٠، وينظر: ٢٨٨/١.
(٣) في الأدب الأندلسي: (الداية): ص١٣٣.

أولاً وأحبها وأهلها هي المثير الفاعل لابداعه ونتاجه[1]، سواء أبقي فيها وشهد تقلباتها، أم غادرها ورآها تندب الأغراب وتبكي الخراب، وتشكو سوء العاقبة ، وتغير الأحوال والأشخاص.

وتبقى أواصر التعلق بين الانسان المبدع ــ أيا كان ابداعه ــ ومكانه الأول متينة أصيلة مبنية على أسس الدوام والاستمرار، فما أن يجد الابداع إلى نفسه سبيلا حتى نراه يذكر ذلك المكان ، ويصفه ، ويأتي على خصائص قومه ، ويعدد مزاياه ومحاسنه، تدفعه لذلك دوافع عدة في مقدمتها وأهميتها الوفاء لمكانه الأم، ورد الدين لأهله الذين عرفهم وأحب عشرتهم ، وبكى لفراقهم وبعدهم . فيا ترى كيف كان وفاء الشاعر الأندلسي لمكانه الأول هذا؟ وكيف كانت مشاعره وهو ينظر إليه وقد دمرته أيدي المحتلين الطامعين؟ وكيف كانت حيرته تجاه تلك الأوضاع وهو لا يدري أيبكي عليه أم يستنفر المقاتلين لأجله، أم يلعن الزمان الذي عاش فيه، أم يحب جام غضبه على الذين أوردوه الموارد، وجعلوه يؤول إلى هذا المصير المأساوي المشؤوم؟؟

ابن حمديس الذي رأينا كيف فعلت الغربة ــ بأنواعها ــ فعلها في شعره، فأكسبته طابع الحزن، ورسمته بألم الشكوى ولوعة البعاد، كان الحنين إلى وطنه همه الثاني الذي زاد ذلك الحزن والألم (فقد فارق موطنه (صقلية) وهو في ريعان الشباب. ولكن احساسه بوطنه ظل قوي الجذور يحن إليه ويعتز به أشد الاعتزاز)[2].

لقد انتجع ابن حمديس اشبيلية وأقبل على ابن عباد الملك الشاعر الجواد، ولكنه لم يهنأ كثيراً بهذا الملك الكريم، فشاهد تغير الحال، وأضطهاد المعتمد وأهله، وخسرانهم لمملكتهم وديارهم ، وفي هذا الوقت العصيب بقي شاعرنا يسمع بما حل في بلده من غزوات. وما حاق بأهله من نكبات ، فكان حنينه صارخاً في الكثير من أغراضه وفنون شعره. فالبحر كان بالنسبة لمثله تجربة مريرة قاسية ، كلما نظر إليه كلما تذكر بلده فحن إليه. يقول:

وراءكَ يا بحرُ لي جنّةٌ لبستُ النعيمَ بها لا الشقاءْ
إذا أنا حاولتُ منها صَباحاً تعرّضتُ من دونِها لي مساءْ

(١) ينظر: المدينة في الشعر، دراسة في موقف الشاعر العراقي الحديث من المدينة: د. علي جعفر العلاق، مجلة الأقلام، ع٥، ١٩٨٦، ص٥٨.

(٢) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١٣٦ــ١٣٧، ديوانه : مقدمة المحقق، ص د ــ ٦. العرب في صقلية: ص٢٤٠.

فلو أنني كنتُ أُعطى المُنى إذا منعَ البحرُ منها اللقاءْ
ركبتُ الهلالَ بهِ زورقاً إلى أن أعانقَ فيها ذُكاءْ[1]

(إن الشاعر في ساعة من ساعات الحزن والألم، يشعر بهبوط الليل عليه، وتصدم الصباح، ويحلو له أن يسكب الدموع على مرابع الصبا، بعد أن أجدبت وأمحلت، ويذكر غارات النورمان المتواصلة على وطنه، ويتمنى أن يستقل الهلال زورقاً، فيعانق الأماني هناك، ولا تتيسر الرحلة بغيره، فلا يلقى الحنان إلا وراء البحار)[2]، إنه (تعلق حميم بالوطن، وهيام بطبيعته الخلابة، وحنين جارف إلى ربوع صقلية واطلالها ومغانيها وهواء أديارها وغاباتها وجناتها وشمسها)[3].

ولم تكن صورة البحر هي الصورة الطبيعية الوحيدة التي عبرت عن معاني الحنين والشوق عند ابن حمديس، بل؛ كانت صورة الناقة وما عرف عنها من شدة الحنين لأبنائها وصغارها، من بين صوره أيضا في مثل قوله:

أحنُّ حنينَ النيبِ للموطنِ الذي مَغاني غوانيه إليهِ جواذبي
ومن سارَ عَن أرضٍ ثوىَ قلبُهُ بِها تمنّىَ بهِ بالجسمِ أوبةَ آيبِ[4]

ويأتي حنينه عادة في نهاية النص. وقبل هذه النهاية يقدم شاعرنا لوحات عدة تدعم خاتمته التي تكون معانيها دياره وأطلاله. وهذه اللوحات تدور حول البعد عن طفل صغير، ومحاورة مع امراة ــ بالرمز الموهوم من أجل ذلك الصغير، ويطنب ابن حمديس في الحديث ليشمل سوء الحال، ومعاناة الفراق[5].

وفي نصٍ آخر؛ يتكلم عن نفسه بدوافع الغربة التي جعلته مبرأ من كل متانة، وتركته في ظلماء مظلمة، وفيها يخوض مغامرة غزلية وهمية تذكره أيام الشباب. وعيشه السعيد الذي كان فيه، ليصل إلى نهاية المطاف إلى تلك الديار وهاتيك الأطلال. وما أحسنه من ذكر، وما حبها من ديار:

(١) ديوانه: ص٤.
(٢) البحر في شعر الأندلس والمغرب : ص٢٩ ــ ٣٠.
(٣) ابن حمديس الصقلي ــ حياته وشعره ــ : ص١١٤.
(٤) ديوانه: ص٣٣. النيب: الواحدة ناب وهي الناقة المسنة.
(٥) ينظر: م. ن: ص٢٤٠ــ٢٤١.

ألا حبّذا تلك الديار أواهلاً ويا حبّذا منها رسومٌ وأطلال
ويَا حبّذا منها تنسمُ نفحةٍ تؤديه أسحارٌ إلينا وآصالُ
ويَا حبّذا الأحياءُ منهم وحبّذا مفاصلُ منهم في القبور وأوصالُ
ويا حبّذا ما بينهم طولُ نومةٍ تُنبّهُني منها إلى الحشر أهوال[(١)]

ويذهب د. منجد ومصطفى بهجة في معاني حنينه ابن حمديس وشوقه إلى وطنه مذهباً، فهو يرى في قصائد ابن حمديس الحربية التي قالها يعظم مراسم البطولة، وسعالم الشجاعة لابناء جلدته في سرقوسة[(٢)]، ما هي إلا من اقترانها عموساً بتلك المعاني. وما هي إلا مشاعره المقتعلة نحو قومه ومواطن قومه[(٣)] يقول:

يخوضونَ بحراً كلّ حينٍ إليهمُ ببحرٍ يكونُ الموجُ فيه فَوارسا
وحربيةٍ ترْمي بمحرقٍ نفطِها فيغشى سَعوطُ المتوتِ فيها المعاطسا

وعلى هذه النغمة المجلجلة كانت سرقوسة منيعة على الكافرين ، فهذه البلاد معروفة بأبنائها فوق الأرض وتحتها، وإن طالتها أيدي الشياطين فما هي إلا سنة الأسود ، وفرحة النئاب:

واضحتْ لهم سرقوسةُ دارَ منعةٍ يزورنَ بالديرين فيها النواوسا
مَشوا في بلادٍ أهلُها تحتَ أرضِها وما مارسوا منهم أبيّاً مُمارسا
ولو شُققتْ تلكَ القبورُ لأنهضتْ إليهم من الأجداثِ أُسداً عوابسا
ولكن رأيتُ الغيلَ إن غابَ ليثُهُ تبخترَ في أرجائه الذئبُ مانسا[(٤)]

لقد كان الحنين غزيراً في شعر ابن حمديس فـ (نكاد نلمس معانيه ونحسها في معظم قصائده ومقطوعاته. وروح البعد وحرقة الفراق والنوى تستشري في خلاياه ، وبين أجزائه، وتطبع فنه بطابع خاص متميز) [(٥)]. ويمكننا القول أن معانيه الغزلية حملت

---

(١) ديوانه: ص ٣٥٩.
(٢) (أكبر مدنية بجزيرة صقلية، وكان بها سرير ملك الروم قديماً..) معجم البلدان: ٣/٢١٠.
(٣) ينظر : البحر في شعر الأندلس والمغرب : ص٣٠.
(٤) ديوانه: ص ٢٧٥ـ٢٧٦.
(٥) ابن حمديس في المهجر: ص١٤٤. وينظر: العرب في صقلية : ص٢٥٨ـ٢٦٢.

مشاعر الحنين،[1] وجسدت مظاهره أيضاً؛ إذ كانت تشتكي الفراق والوداع وفيها حنين مبطن نحو من يحب ــ بلده وأهله ــ.

أما حنين ابن خفاجة فلا يقل عن حنين ابن حمديس جودة وعذوبة، وهنا ربما لنا وقفة جديدة مع الباحث[2] ــ قدمنا القول في رأيه ــ الذي يرى أن شقر مدينته لم تنل العناية التي يجب أن تكون في ديوانه، وإنه ــ بن خفاجة ــ لم يهتم كثيراً بما حدث لها حين غزاها وخربها السيد القمبيطور!

لقد (كان ابن خفاجة من أكثر شعراء بلده وصفاً لطبيعة الجزيرة وتغنيا بمحاسنها وافصاحاً عن عشقه وتعلقه بمعالمها)[3]، فهو إذا ما حنّ إليها لم ينسَ أرضها أو نهرها، يقول:

وحنَّ إلىٰ شُقرٍ فخفَّ علىٰ السُّرىٰ ... يخوضُ خَليجاً أو يجوبُ كثيبا
يؤمُّ بِها أرضاً علىَّ كريمةٍ ... ومرتبعاً فيها إليَّ حبيبا
ونهراً كما ابيضَّ المقبلُ سَلسلاً ... وجزعاً كما أحضرَّ العِذارُ خضيبا[4]

(وكما كان الحمام في سجعه وشجوه ونواحه محركاً لأشجان الشعراء ومثيرا لأشواقهم ولواعج صدورهم ومهيجاً في نفوسهم مكامن الأشواق وذكريات الشباب والمرح واللهو بعد تقدم السن)[5]. كان الحمام كذلك مصدر صور ابن خفاجة في حنينه إلى وطنه. فما أن يسمع بشدو الحمائم وسجعهن إلا ويثرن في نفسه أشجانه وأحزانه، فيبكي معهن معاهد صباه، وذكريات مرابعه، على شاملة قوله:

وافصحتِ الورقاءُ في كلِّ تلعةٍ ... نشيداً وقد رقَّ النسيمُ نَسيبا
وكانَ علىٰ عهدِ السلو تغنّياً ... يهيّجُ إطرابي فعادَ نَحيبا

---

(١) ينظر: ديوانه: ص٨.

(٢) هو الأستاذ عبد الرحمن جبير. رأيه في ص ٢٨٦ من هذا الفصل.

(٣) جزيرة شقر (الإنسان والمكان): ص١٧٣.

(٤) ديوانه: ص:١١٢.

(٥) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي: د. حازم عبد الله خضر، دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد، ١٩٨٧، ص١٢١، وللمزيد ينظر: ص١٢٦ــ١٢٩.

دعا بغروبِ الدمعِ والدارُ غُربةٌ	فلم أرَ إلا داعياً ومُجيبا[١]

لقد بلغ تعلق ابن خفاجة ببلدته شُقر حداً جعله لا يطيق صبرا عنه إذا ما كتب الله له فراقاً، أو بعداً، وما أن خرج عنها مضطراً ونزل غيرها من المدن حتى صدرت عنه قصائد في الحنين إلى جزيرته تنبض بصدق العاطفة ورهافة الاحساس ، وشدة شغفه بموطنه الذي لا يعادله شغف (وتمنى أن ترجع ايامه وهو في أرض الجزيرة فيغدو بواديها ورباها، ويمرح ويأنس بظباها)[٢] وفي مثل قوله:

ألا هَلْ إلى أرضِ الجزيرةِ أوبةٌ	فاسكن أنفاساً وأهدأ مضجعا؟
وأغدو بواديها وقد نضح الندى	معاطف هاتيك الربى ثم أقشعا
أغازل فيها للغزالة سنة	تحط الصبا عنها من الغيم برقعا[٣]

وكان لوقع جزيرة شُقر على ضفاف النهر الذي سُمي باسمها، ما زاد الطين بلة إذا كان ابن خفاجة — وغيره من شعراء الجزيرة — يتذكر تلك النزهات التي كانت تجري في النهر، وقضاء الساعات الماتعة في النظر إليه والتأمل بجريان الماء فيه، وغناء الأطيار على شاطئيه، وفي مثل هذه الطبيعة الحالمة يقول في قصيدة عدها د.محمد الداية أنموذجاً لشعر الحنين في الأندلس[٤]:

بينَ شُقرٍ وملتقى نهريها	حيثُ ألقتْ بنا الأماني عصاها
ويغني المكاءُ في شاطئيها	يستخفُّ النهى فحلّتْ حباها[٥]

ولنا أن نكشف عن عمق معاني الحنين، وشدة الحسرة والألم على ضياع مدينته التي نعم بظلها، وتفيأ نعيمها في ألفاظ الندب، والبكاء وصراخ الآه الموجعة. فقد

---

(١) ديوانه: ص١١٣.

(٢) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص٢٢٧.

(٣) ديوانه: ص١٢٨، وقال د. الداية إن عبارة الجزيرة هنا محيرة، فهل تعني الجزيرة الأندلس أم هي شُقر. ينظر: في الأدب الأندلسي: ص ١٣٥. ولاشك في أن مقصد ابن خفاجة هو جزيرة شُقر فالأبيات التي تلي هذا البيت تُعنى بوصف شقر وطبيعتها ، كما أن ابن خفاجة لو أراد الأندلس لجاء باسمها صريحا كما في الأبيات التي مثلنا بها في أول حديثنا عن الحنين إلى الأندلس كلها.

(٤) ينظر: في الأدب الأندلسي: ص١٣٥.

(٥) ديوانه: ص٣٦٤.

انتشرت هذه الألفاظ بين جزئيات أبياته لاسيما بعد أن يقدم لنا وصفه الدقيق عن طبيعة مدينته، ذلك الوصف العاشق لها، الهائف بمعالمها ومحاسنها. هاك قوله باكياً متحسراً:

سجعتْ وقد غنّى الحمامُ فرجعا وما كنتُ لولا أن تغنّى لأسجعا
وأندبُ عَهداً بالمشقّر سالفاً وظلّ غمامٍ للصبا قَد تقشّعا[1]

وفي مثل قوله في تبدل الزمان، وتغير الأخوان على سعة استخدام من ألفاظ الحزن وتعاليها داخل النص:

فيا لَشَجا صدرٍ من الصبرِ فارغٍ ويالقذىً طرفٍ من الدمعِ ملآن
ونفسٍ إلى جو الكنيسةِ صَبّةٍ وقلبٍ إلى أفقِ الجزيرةِ حنّان
تعوّضتُ من واهاً بآهٍ ومِن هوىً بهونٍ ومن أخوانِ صدقٍ بخوّان[2]

وعلى شاكلة هذه الآه، وذلك الندب يأتي قوله:

فاندبْ المرجَ فالكنيسةَ فالشطّ وقُل آهٍ يا معاهدُ آها
آهٍ من عبرةٍ ترقرق بثأ آهٍ من رحلةٍ تطولُ نواها
آهٍ من فرقةٍ لغيرِ تلاقٍ آهٍ من دارٍ لا يجيبُ صداها
لستَ أدري ومدمعُ المُزنِ رطبٌ أبكاها صبابةٌ أمْ سَقاها[3]

وعلىٰ الرغم من تعدد آهات الشاعر. فمرة من الفرقة ومرة من البعاد وأخرىٰ من تغيّر الزمان ورابعة من صمت الديار الطويل، فإن المكان بقي خلف تلك الآهات في هذا النص والنصوص التي قبله. فالمشاعر إنما تتجدد حزناً ، وتتألق بكاء بفعل هذا العامل المهم، فهو ــ أي المكان ــ مثلما يبعث فينا مشاعر الطمأنينة والراحة والسعادة، مثلما يثير فينا مشاعر الحزن والأسى والألم إذا ما شاهدنا تتابع الظروف العصيبة من حوله، وتوالي الأحداث الجسام العظام على واقعه.

وإذا ما انتقلنا إلى عصر الموحدين، كانت صور الحنين إلى المدينة الأندلسية أقوىٰ مشاعراً، واشد أحكاماً وسبكاً، فقد شاهد الشاعر الأندلسي ــ بعين الحزن والمرارة

(١) ديوانه: ص ٥٦.
(٢) ديوانه: ص٢٤٥. والكنيسة من معالم جزيرة شُقر. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٤٩ــ٣٥٠.
(٣) م. ن:ص٣٦٥. والمرج والشط من معالم شقر، أيضاء ينظر: الروض المعطار: ص ٣٥٠

ـ سقوط العديد من المدن على يد النصارى الأسبان، كما شاهد مقتل أهليها ، وخراب جمالها ، فبعث في نفسه أحاسيس السخط والغضب والاستنكار . إلا أن صورة مدينته الجميلة وأحاديث ذكرياته الغابرة لم تغب عن باله فجسدها حنيناً وشوقاً وتوقاً في شعره. ناهيك عن بعض الشعراء قد غادروا الأندلس إلى بلدان أخرى خارج الجزيرة الفيحاء ، فكانت تلك الصور والأحاديث كل ممتلكاتهم من ديارهم وأوطانهم، فلا غرو أن يبكوها في كل مناسبة، ويرددوها في كل كارثة.

ابن البراء التجيبي (المئة السادسة)[1] الذي فارق موطنه وهو صغير منتزحاً إلى صحراء ، لم يعدم الحنين إليه في تأويبه وسراه، فهو إذ لم يعد إليه ، ظل حنينه الهاجس المتين الذي يربط شاعرنا بمكانه الأول ـ الأم ـ فأنشد له كثيراً، وبكى على فراقه طويلا بدمعه وفؤاده.. يقول :

عندي على الخضراءِ دمعٌ وأكفٌ ... والقلبُ أبردُ حرّه والرمضاءُ
أودى ثقافٌ فراقنا بقناتنا ... فانآدتِ اليزنيّةُ السمراءُ
نزحتْ بي الأقدارُ عن دارِ الهوى ... وقذفنني حيثُ الفؤادُ هواءُ
فإقامتي ما بينَ أظهرِ معشرٍ ... سيّانِ عندهم الدجى وذكاءُ[2]

وفي حنينه تمتزج ذكريات الصبا بوجد عميق. وعلى الرغم من المدة القصيرة التي أمضاها في بلده إلا أنها كافية لتعلق دائم، فأيام الصبا والطفولة هي أهم أيام العمر فمهما كانت قصيرة فإن سعادتها لا تزول ، وأن باقي الحياة يقوم على أولها، وحجة التجيبي في هذا القول هو اكرام جفن السيف من أجل نصله، وفوحان رائحة العنبر والورد من جهة المراة ولو بقليل أو من بعيد. هاك قوله:

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن البراء، من أهل الجزيرة الخضراء، ومعدود في المجيدين من الشعراء . وله ديوان نظم ونثر كبير. فارق وطنه صغيراً منتزحاً إلى بلاد الصحراء. ومستدحاً من كان بها من الامراء. ينظر: تحفة القادم: ص١٤ـ١٧، المقتضب من تحفة القادم: ص٨، الوافي بالوفيات: الصفدي. تحقيق : د. محمد يوسف نجم، دار صادر ـ بيروت، ١٩٧١، ٨/٢٦.

(٢) تحفة القادم: ص١٤، الوافي بالوفيات: ٨/٢٦.

أحِنُّ إلــىٰ أرضٍ لبســتُ بِــها الصِّبــا فعندي لها من أجلِ ذكــرِ الصبــا وجـدُ
ومن أجلِ نصلِ السيفِ أكــرمَ جفنَــهُ ومن جهةِ الرّيا سَما العنــبرُ والــوردُ[1]

وعلى عادة الشعراء الذين يستسقون المطر لبلادهم أو لمرثييهم، دعا التجيبي للجزيــرة بالسقيا، متحسراً على أيامه التي أمضاها بها متمنيا، لو تعود ، ولكن هيهات هيهات:

سقىٰ وأكفُ القطــرِ الجزيــرةَ إننــي إليــها وإنْ جــدَّ الفــراقُ لوامِــقُ
دياراً بــها فــارقتُ عصــرَ شــبيبتي فيا حبــذا عصــرُ الشــبابِ المفــارِقُ[2]

أما ابن جبير الذي شد الرحال بعيداً عن غرناطة ، فزار مصر ومكــة والشــام وبغداد، فكانت مشاعر الحنين لموطنه لا تضاهيها مشاعر ،وشوقه لروية غرناطــة لا يدانيه شوق، فهو إذا ما وصل إلى بغداد تذكر بلده، فاستسقى له، وابتهل إلى الله سبحانه برد كل غريب بعيد إلى وطنه، قال:

سقىٰ اللهُ بابَ الطاقِ صــوبَ غمامــةٍ وردَّ إلــىٰ الأوطــانِ كُــلَّ غَريــبِ[3]

وكان هاجس الغربة عنده طاغٍ على أحساسيه، وما انثارت الغربة إلا ولدت الحنين فــها هو ــ ابن جبير ــ يقطع غصناً نضيراً في بغداد فيموت بين يديــه،ويفقــد نضارتــه وخضاره فقال معتبراً وموازناً بين حالة الغصن، وموقف الغريب من الوطن الجديد:

لا تغــتربْ عَــن وطــن واذكــرْ تصــاريفَ النــوىٰ
أمــا تــرىٰ الغصــنَ إذا مــا فــارقَ الأصــلَ ذوىٰ[4]

وقريب من هذا المعنى في رسم صور الاشتياق والحنين إلى الوطن قول ابــي الحسن سهل بن مالك الأزدي الغرناطي (ت٦٣٩)[5] عندما امتحن بالتغريب عن وطنــه

---

(١) تحفة القادم: ص١٤، الوافي بالوفيات: ٢٧/٨.

(٢)تحفة القادم: ص١٤، المقتضب من تحفة القادم: ص٨، الوافي بالوفيات: ٢٨/٨.

(٣) مجموع شعره: ص٣٢.

(٤) م. ن: ص٣٠.

(٥) أبو الحسن سهل بن مالك ، غرناطي. ذو مواقف مشهورة في الخطابة والوفادة على الملوك . لمــا ثــار محمد لبن يوسف بن هود صار العقد والحل بغرناطة إليه. كان بارعاً في النظم والنثر وافر النصيــب مــن

المرية. فشبه حاله وهو بمرسية بحال شمامة قطفت عن غصنها وأبعدت عن أمها، فلنتامل قوله:

وحاملِ طيبٍ لم يُطيَّبْ بطيبهِ ... ولكنَّهُ عندَ الحقيقةِ طيِّبُ
تألّفَ من أغصانِ آسٍ وزهرةٍ ... فمن صفتيهِ زاهرٌ ورَطيبُ
تعانقتِ الأغصانُ فيهِ كلما التقى ... حبيبٌ على طولِ النوى وحبيبُ
وإنَّ الذي أدناهُ بعدَ فراقِهِ ... إليَّ لسرٌّ في الوجودِ عُجيبُ
مناسبةٌ للبينِ كانَ انتسابها ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ
فبالأمسِ في أشجارهِ وبدارهِ ... وباليومِ في دارِ الغريبِ غَريبُ[1]

وحنّ غيره إلى قرطبة[2]، وغيرهم إلى اشبيلية[3]. ويحنّ ابن الأبار إلى بلنسية فما أن غادرها وابتعد عنها حتى تملكته أشواق البعاد، وتأججت في صدره نيران الحنين. يقول مازجاً بين تلك الأشواق والنيران:

إلى أوطانهِ حنَّ العميدُ ... فظلَّ كأنَّهُ غصنٌ يميدُ
ومسقطُ رأسهِ ذكرَ اشتياقاً ... فذابَ فؤادُهُ وهُو الحديدُ
ولو رامَ السلوَّ أبتْ عليهِ ... معاهدُ عهدُها الماضي حميدُ[4]

ولا يخفى على ابن الأبار التعبير عن حنينه لموطنه بأعمق صور الحنين عند العرب، وهي حنين الإبل إلى أولادها، وهذه الصور تدل على رهافة احساس الشاعر، وشدة تعلقه بموطنه ودياره التي لا يقوى على مفارقتها وأهلها:

إلى الألفينِ من أهلٍ وداري ... تأوبني اشتياقي وادكاري
وحنَّ القلبُ أعشاراً إليها ... حنينَ الوالهاتِ من العشارِ

=الفقه. قال فيه ابن سعيد: (لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها في العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار). ينظر: زاد المسافر: ص ٩٦ـ٩٧، برنامج شيوخ الرعيني: ص٥٩، اختصار القدح المعلى: ص٦٠ـ٦٥، المغرب:١٠٥/٢، الذيل والتكملة: ١٠١/٤.

(١) الذيل والتكملة: ١٠٤/٤.

(٢) ينظر: المغرب: ٣١/٢، نفح الطيب: ٩٥/٢.

(٣) ينظر: نفح الطيب: ٢٨١/٢ ـ ٢٨٢. وللمزيد ينظر: الذيل والتكملة: ١٢٢/١/١ـ١٢٣، ٤٢/١/٨، الاحاطة: ٢٩٨/٤، النفح:٣١٥/٣.

(٤) ديوانه: ص١٧٧. وينظر: ديوان ابن سهل: ص١٦٦ـ١٦٨.

فبتُّ كأني ، تَوقاً وشَوقاً علىٰ مثل الأسنة والشفار
وما حشوُ الضلوع سوى أوارٍ وما نومُ الجفون سوىٰ غرار[1]

وما كاد ابن الابار ليسلو عن أيامه التي قضاها في بلنسية أيام شبابه، ولم ينسَ تلك الطبيعة الخلابة التي عاش في كنفها أبهى الساعات، وأجمل الأوقات:

ما للهوىٰ إلاالرّصافةِ مَأربُ بعدَ الغدير فكيفَ يصفو مشربُ
كانا مراداً للنعيم ومُورداً إذ كنتُ بينهما أجيءُ وأذهبُ
والإلفُ للميعادِ بي مترقّبٌ والدهرُ بالإسعادِ لي متقرّبُ[2]

وبمثل هذه الأبيات والقصائد، يكون شعر الحنين لدىٰ ابن الأبار (قرين احساسه بمشاعره الوطنية، ففي شعره نلمس شعوراً صادقاً ومتميزاً ، أعطى شعره تلك النبرة الحزينة التي غذتها مرارة الغربة)[3].

وشاعرنا الرندي ممن حمل مثل هذه الوطنية الصادقة في حنينه لوطنه. فهو إذا ما اشتاق لرندة[4]، أو حن إليها، اشتاق لمدن الأندلس كلها، وحن إليها جميعها. كيف لا وهو صاحب النشيد الوطني في رثاء الأندلس ومدنها، التي غطت الآفاق، وملأت الأسماع.. يقول الرندي وهو بمراكش يتشوق إلى الأندلس عموما، وإلى رندة خاصة:

بلّغ الأندلسَ السلامَ وصفْ لَها ما فيَّ من شوقٍ وبُعدِ مزارِ
وإذا مررتَ برندةَ ذاتَ المُنىٰ والراحِ والريموسِ واللوزارِ
سلّمْ علىٰ تلكَ الديارِ وأهلِها فالقومُ قومي والديارُ دياري[5]

لقد أخرج الرندي أبياته (مخرجاً عاطفياً عميقاً، ودخل إلىٰ موضوع الحنين من باب استحلاف السامع الذي يصل إليه نداء الشاعر بأمور كثيرة تصلح لذلك ، وتلفت

(١) ديوانه: ص١٩٩.
(٢) م. ن: ص٥٩.
(٣) شعر ابن الابار ــ دراسة فنية ــص:١١٠.
(٤) رُندة: مدينة بالأندلس ، قيل أنها حصن بين اشبيلية ومالقة. وهي مدينة قديمة وبها آثار كثيرة. ينظر: معجم البلدان: ٢٧٣/٣، الروض المعطار: ص٢٦٩.
(٥) مجموع شعره: ص٧٠٥.

نظره ليحمل عنه رسالة شوق ومحبة وحنين إلى بلدته رندة ، التي تستأهل منه تلك اللفتة واللهفة في آن معاً)[1].

أما حازم القرطاجني، فيطلقه صراخاً مدوياً، وينشده نداءً روحيا، عندما يتذكر موطنه الأول مرسية[2]، فيهيم بجنة ارضه، ومكان أنسه وأفراحه:

بجنّةِ الأرضِ همتُ يا صاحِ　　فليسَ عنها الفؤادُ بالصّاحِ
تلكَ محلُّ النهورِ مُرسيةٌ　　موطنُ أُنسي ودارُ أفراحي
مُرسيَ، كَم ناعمٍ وكَم جذلٍ　　بينَ الرياحين فيكِ والراحِ![3]

تجسد هذه الأبيات (مدى الارتباط الروحي بين الشاعر وبلده فهو يراها جنة وكأن مثيلها والمعوض عنها مفقود. ويأتي في الجناس (صاح،صاحي)،ليحمل نغمية تجسد طربه عند تذكره لموطنه الأول الذي فقده)[4].

هذا كل شيء عن حنين الشاعر الأندلسي لمدينته ومكانه الأم على عصر الموحدين ، وأما بالنسبة لعصر بني الأحمر فلم يكن ليقصر فيه الشاعر تجاه بلده ودياره على الرغم من مرارة الحوادث ، وانهيار السلطان، وتفشي الفتن وضياع الحقوق، وانتشار الفوضىٰ واختلال الأمن. بل؛ لعلّ هذه الضطرابات زادت شوقه وتوقه لوطنه، وتمنّىٰ لو يعود ـ مثلما كان –الوطن الأم– الأمل، الامن والأمان، العزة والرفعة. وفي هذا العصر سيقتصر حديثنا في الحنين على مدينة واحدة فقط هي غرناطة ، إذ (عبر الشاعر الأندلسي عن حبه لها لكونها البقية الباقية من الفردوس المفقود، فكان تعبيره فيها ملآن بالعواطف العميقة والمشاعر الصادقة)[5]. فشاعر وأديب ونحوي كابي حيان، لقي جفوة الزمان، وعاش جور الناس، ودوران الأيام بخطوبها ومصائبها وذل أهلها،

---

(١) في الأدب الأندلسي : (الداية)، ص١٣٧ــ١٣٨.

(٢) مرسية: بالأندلس قاعدة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وهي كثيرة الأشجار والأنهار والمعادن. ينظر: معجم البلدان: ١٠٧/٥، الروض المعطار: ص٥٣٩ــ٥٤٠.

(٣) قصائد ومقطعات: ص١١٣، وينظر: ديوانه: ص ٣٦، ص٤٦.

(٤) الصورة البيانية في شعر حازم القرطاجني: صالح كاظم صكبان، (رسالة ماجستير) كلية التربية في الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٠، ص١٣٢.

(٥) القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن: ٤١٢/١.

كان من الطبيعي أن يحمل تلك العواطف والمشاعر نحو بلده الأول، فيصفه بموطن السعادة ويرسل له التحية، ويدعو له بالسقيا:

أيا معهدَ الإسعادِ حُييتَ معهداً   وجادكَ من سكبِ الغمامِ هتونُ
فإن تكنْ الأيامُ قد لعبتْ بنا   ودارتْ علينا للخطوبِ فنونُ
فمن عادةِ الأيامِ ذلّ كرامِها   ولكنْ سبيلُ الصابرينَ مبينُ[1]

وهذا أبو الحسن علي بن الصباغ العقيلي (ت٧٥٨هـ)[2]، يصف لوعة الفراق، وعظمة الحزن وهو يحن إلى بلاده،وإلى أيامه السالفة في ربوعه:

لحا اللهُ أيامَ الفراقِ فكم شجتْ   وغادرتِ الجذلانَ وهو حزينُ
وحيّا دياراً في غرناطة   وإنّي بذاكَ القربِ فيه ضنينُ
خليليَّ، لا أمرٌ، باربُعِها قفا   فعندي إلى تلكَ الربوعِ حنينُ[3]

ابن الخطيب الذي كان واحداً من دانت له الدنيا فرفعته، ثم دالت عليه فوضعته، فعاش الغربة بكل معانيها؛ غربة الفكر والأدب، غربة الأصحاب والخلان. غربة الأوضاع السياسية ، غربة المكان المعاش ، وانتهى به المطاف بقتله بأبشع صور القتل، لم تكن أشعاره لتقف دون أن تصف معاني حنينه وشوقه، بعد أن وصفت معاني رثائه بنفسه، وهجائه لصعبه وكل ما يمتّ إلى الحزن والكمد بصلة ، فبعده عن غرناطة ، ورؤية الحاقدين المناوئين ينعمون بظل السلطان ويتبوأون . وزارته من بعده، ظلت في مخيلته، ودارت بين اشعاره وألفاظه. فأفرط من معاني الفراق والبكاء، وأكثر من الوقوف على معاهد الأحبة، وفي نفسه نفثات الوجد، وحسرات الوصل. هاك قوله في مثل هذه المعاني من مقدمة مدحية:

قفا فاسألا في ساحةِ الأجرعِ الفردِ   معالمَ محتها الغمائمُ من بعدِ
وجَرّتْ عَليها الراسياتُ ذيولَها   على أنها تزدادُ طيباً على البُعدِ
وعُوجا عليها فاسألا عَن أنيسِها   وإنْ كانَ تسآلُ المعالمِ لا يُجدي
ولكنّها نفسٌ تجيشُ ونفثةٌ   تُروّحُ من بثٍّ وتطفئُ من وجدي

---

(١) ديوانه: ص ٤١٠.

(٢) للمزيد عن شعره ينظر: الكتيبة الكامنة: ص٢٢٨ــ٢٢٩ الترجمة (٧٩)، الاحاطة: ١٢٢/٤.

(٣) الاحاطة: ١٢٣/٤.

مرابعُ ألاّ في وعهدُ أحبتي سقىَ اللهُ ذاكَ العهدَ منسكبَ العهدِ(١)

ولم تقتصر هذه المعاني على المقدمة فحسب، بل؛ جاءت في خاتمة قصائده أيضا(٢)، ولم تكتف بغرض المدح بل؛ جاءت مع الاخوانيات(٣)، ومع الفخر الشخصي(٤)، وحتى مجالسه الوعظية، التي كان يعظ فيها الناس، ويرغبهم فيما عند الله، وأنهم غرباء في هذه الدنيا مهما نالوا منها، وحظوا بسعادتها، لم تخل تلك المجالس من ذكر الربوع والشوق إليها، وأن فعل الموت. وفعل البين عن من نحب سيان لا يختلفان في شيء:

صحتُ بالربعِ فلم يستجيبوا ليتَ شعري أينَ يمضي الغريبُ
وبجنبِ الدارِ قبرٌ خصيبٌ منهُ يستقي المكانُ الجديبُ
غابَ قلبي فيهِ عندَ التماحي قلتُ هذا القبرُ فيهِ الحبيبُ
لا تَسلْ عن رجعتي كيفَ كانتْ إنّ يومَ البينِ يومٌ عصيبُ
باقترابِ الموتِ علّلتُ نفسي بعدَ إلفي كلّ آتٍ قريبُ(٥)

أما فيما يخص حنين ابن زمرك(٦)، فكان أغلبه متكلفاً بارداً، نرى عليه أثار التكرار في المعاني والألفاظ، وقد يعود سبب ذلك إلى أنه ارتبط بالمديح، فعالج حنين غيره، ولاسيما ممدوحه الغني بالله إذ كان يمضي أغلب وقته خارج غرناطة في حروبه وغزواته.

وثمة ظاهرة أخرى جديرة بالاهتمام في حنين الشاعر الأندلسي . وهي ظهور أسماء المدن المشرقية في هذا الحنين ولاسيما نجد، واستخدامها كمعبر لمشاعر الشاعر الأندلسي نحو مدينته سواء أكانت غرناطة أم غيرها، ويمكن القول أن هذه الظاهرة

---

(١) ديوانه: ص٤٣٥، جدع النبات : قطعة من أعلاه . رمس الشيء: طمس أثره.

(٢) ينظر: م. ن: ص٥٧٤.

(٣) ينظر : م. ن: ص٥٩٦_٥٩٧.

(٤) ينظر : م. ن: ص٥٦٩.

(٥) ديوانه: ص٣١٦.

(٦) ينظر: ديوانه: ص٦٩_٧٠، ص١٠٠، ص١٠١، ص١٠٦، ص١٨٦، ص٣٢٧، ص٣٤، ص٣٥٠_٣٥١.

ظهرت في عصر الموحدين[1] بادئ الأمر إلا انها استوت على سوقها ، وأتت أكلها في عصر بني الأحمر. وقد تنبه د. عبده بدوي[2] إلى أن نجداً كانت رمزا للجزيرة العربية، رمزاً للنقاء الأول الذي يخلقه هذا المكان في نفس الإنسان العربي عموماً ؛ فلا غرو أن يحن إليه في أوقاته الصعبة، وأن يهرب لذكره كلما وجد الفرصة سانحة لهذا الهروب. فابو المطرف بن عميرة المخزومي يرمز لنجد وبعض الامكنة الموروثة لتدل على عظمة حنينه وكبير شوقه لمدينته بلنسية . ولكنه ؛ ما يلبث ان يتحدث عن رزئها ومصائبها بتصريح وبيان يكتنفهما الاسىٰ واللوعة والالم :

تحنُّ الى نجدٍ وهيهاتَ حرّمتْ صروفُ الليالي ان نعودَ إلىٰ نجدِ
ويا جبلَ الريّان لاريّ بعدما عدتْ غيرُ الايام عَن ذلكَ الوردِ
امِن بعدَ رزءٍ في بلنسةٍ ثَوىٰ باضلاعِنا كالنارِ مضرمةِ الوقدِ
الا ليتَ شعري هَل لها من مُطالعٍ تعادُ إلىٰ ما كانَ فيها مِن السعدِ[3]

ابن خاتمة يرمز بهذا الحنين إلى نجد حنينه إلى غرناطة في أبيات يصف فيها قلبه بالوجد كلما تذكرها، وجسمه بالاعتلال كلما مرت به نسائم أحبابها:

أحِنُّ إلى نجدٍ إذا ذُكرتْ نجدُ ويعتادُ قلبي من تذكرِها وجدُ
ويعتلُّ جسمي أن يَهُبَّ نسيمُها عليلاً له بالأثلِ أثلِ الحِمىٰ عهدُ
وما مَقصدي نجدٌ ولا ذكرُ عهدِها ولكن لجرّي مَن غَدتْ دارُهُ نجدُ[4]

(ثم نراه في أبيات أخرى يترك الرمز جانباً ويتوغل في أعماق، وإذ بنجد هي غرناطة ومن حل بنجدهم من حل بغرناطة من الأحبة)[5]:

يا نسيماً سَرىٰ لأقربِ عهدٍ بحماها حدثني الأخبارا

(١) ينظر: شعر ابي جعفر بن سعيد : ص٢١، الاحاطة: ٢٩٨/٤، الديباج المذهب: ٣٧٨/١، نفح الطيب: ٤٧٦/٤.

(٢) ينظر: الغربة المكانية: ص٢١.

(٣) اختصار القدح المعلىٰ :ص٤٨، نفح الطيب: ٣٠٨/١، ابوالمطرف احمد بن عميرة المخزومي (حياته واثاره):ص٢٣١.

(٤) ديوانه: ص٥٣.

(٥) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص٢٥٠.

كيفَ غرناطةُ ومن حَلَّ فيها حبّذا الساكنونَ تلكَ الديارا
كيفَ أحبابُ مهجتي روحُ روحي نورُ عَيني، الجآذرَ الأقمارا[1]

وأما ورودها في شعر ابن زمرك، فهي لم تدلّ علىٰ الحنين لا من قريب ولا من بعيد، فقد جاءت في نص[2] جواباً على رسالة لأستاذه ابن الخطيب، والنص وإن قيل في بعد مكاني بين الطرفين إلا أن نجداً لم تثر في هذا البعد حنيناً أو شوقاً، فراح شاعرنا يبادل أستاذه الهموم ، ويتمنىٰ لو زاره ونعم بقربه.

وفي نص آخر قيل في تهنئة السلطان الغني بالله ببعض المواسم العيدية، ووصف كرائم من جياده، وآثار ملكه وجهاده لم تأتِ لتدل علىٰ الحنين، علىٰ الرغم من المهنّأ كان يمضي جلّ أوقاته خارج مملكته، بل؛ راح يوازن بين نجد وغرناطة وآثار كل منهما علىٰ حدة، وربما نسأل لِمَ نذكرها في هذا المكان ما دامت لا تعني حنيناً ولا تبغي شوقاً؟ فنجيب أن مطلعها أرغمنا علىٰ ذلك، يقول:

يا مَن يحنّ إلىٰ نجدٍ ونادیها غرناطةً قد ثوتْ نجدٌ بواديها[3]

فكان حرياً بابن زمرك أن يأتي بلوحة ولو من أبيات معدودة فيذكر حنين الممدوح ــ أو المهنّأ هنا ــ حتىٰ يسبغ على النص مشاعر الفرح بلقيا الأحباب وبالعودة إلى البلاد، بعد أن جاء بمثل هذا المطلع، وبعد أن بلغت أبيات هذا النص الكلية (١١٥) بيتا!!

وعن شعر يوسف الثالث ــ الملك الفارس المقاتل ــ فما غابت صور الحنين بهذه الرموز المشرقية عن شعره . فهو يذكر نجداً، ويساجلها بدموع وابلة، وأكباد محترقة حتى يصل غرناطة فيودعها أشواقه، ويشكو لها أغترابه:

سقياً لغرناطة واللهِ ما برحتْ تُلقىٰ من البعدِ في قلبي تَباريحا
ربعٌ إلىٰ ربي الأعلىٰ ملائكةٌ تُهديه عنّي تَقديسا وتَسبيحا
....
....
....

(١) ديوانه: ص ٦٨.
(٢) ينظر: ديوانه: ص٤٢٥ــ٤٢٦.
(٣) م. ن: ص٥٠٠ــ٥٠١.

طالَ اغترابي عن أهلٍ وعَــن وطــنٍ		وســامني زمنــي وجـداً وتَبريحـــــا[1]

وعلينا أن نعلم أن هذه القصائد قد نُظمت في جبل الفتح، وهو يخوض غمار الوغـــى، ويقاسي صرعات الحرب، فلابد أن تكون هذه الأبيات قد نظمت وهي أمام صور الموت المختلفة، ولذا شابتها عاطفة صادقة، ومشاعر مرهفة.

ولم يقتصر حنين يوسف الثالث على ذكر نجد ـ الطلل الدائـم ـ بـل؛ ذكـر الزوراء وهو كما نعلم من أسماء بغداد وأراد بها غرناطة في أبيات أتت بعد هذا الذكـر من قصيدة قدم لها بقوله: (إننا تذكرنا أيام المقام في ظاهر جبل الفتــح إلــى أحبائنـا والحالين بأعز مكان)[2]:

فيا ساكنَ الزوراءِ هَــل مــن تحيـةٍ		ولو مثل مــا يُـهدىٰ الصديـقَ صديـقُ
بعيشِـكَ حمّلــها الريـــاحَ لعلّــها		تَـهبُّ ، ففـي طـيِّ الضلـوعِ حريـقُ
أنــا ذلـك المضنـي بحبـك كلمــا		تُذوكــرَ إلــفٌ بــالودادِ خليـــقُ
وغرناطـــةٌ دارٌ أَلفنــــا بــــها		وهــب أنَّ مرماهـا الغـداةَ سَـحيقُ
ففيــها مِـن الأعـلامِ كـلُّ ممجـدٍ		لَـهُ نحـوَ غايـاتِ الكمــالِ سـبوقُ
ألفنــا هواهُــم حيـثُ حـلَّ ركابنـا		صبـوحٌ لنـــا ذاكرهُــم وغبـــوقُ[3]

وذكر نجداً شاعره ابن فركون[4]، في مقدمة لقصيدة مدحية، وشـملت المقدمـة ثلاثة عشر بيتاً جمع إليها الطبيعة والغزل التقليدي الذي جارىٰ فيه الشعراء القدماء حين ذكر عدم اهتمام الحبيبة بقول الوشاة، وصده بذلك الممدوح الذي ولج إليه بعد المقدمـة وذهب في تعداد أفضاله ومحامده ، ووصف شجاعته وبسالته.

وعلى أية حال ؛ سواء أكانت هذه الرموز المشرقية سنة يتبعها أصحاب الحنيـن المتواتر ، أم كانت بدعة يتبعها أصحاب الحنين الموهوم لارتباطه بسمو حيهم وأرب‍ـب نعمهم ، فإن خيوط التجربة الأدبية فيها ظلت ساطعة منيرة، ووصلت إلينــا بصدقـها وزيفها، وهي بغض النظر عن كل شيء تبقىٰ تجربة لها ميزاتها وفيها عيوبها.

---

(١) ديوانه: ص٢٩.
(٢) م. ن: ص١٨٤.
(٣) م. ن: ص١٨٥.
(٤) ينظر: ديوانه: ص١٢٩.

٣ - الحنين إلى معاهد الصبا ، ومواطن الأهل والخلان والأحباب.. (المكان الذكرى).

هذا حنين من نوع آخر ، إنه حنين إلى تلك المشاعر الدافئة الأخوية التي تربط الشاعر بصحبه وأترابه . وهذا النوع من الحنين وإن كان بعيداً نوعاً ما عن التصريح باسم المكان الذي يفصل بين الشاعر وبين من يحن إليهم، إلا أنه ــ أي المكان ــ المثير الفعال لتلك المشاعر ، والدافع الأهم في نظم هذي الأشعار ومادام الشاعر الأندلسي ــ في هذا الحنين ــ لم يصرح باسم مكانه على أغلب النصوص التي وردتنا. فإنه راح يرمز لهذا المكان بدلالات نفسية لمظاهر الطبيعة ــ الحية الصامتة ــ أو استخدام دلالات الغربة، أو اثر أحاديث الذكريات وتوجه إلى ذلك العهد القديم، وتمنى عودته . وهذه الدلالات وغيرها تصب أولاً وآخراً ــ في موضوعنا المكان وأثره في البنية الموضوعية الفنية على النص الشعري الأندلسي ، فهذه الدلالات على كثرتها وتعددها أخذت من بيئة الشاعر ، وواقعه الذي يعيش فيه، فلا عجب أن يكون النص الشعري هو ابن هذي البيئة. والنتيجة الحتمية لهذا الواقع بكل ملابساته وتطوراته.

ومع هذا الواقع المرير ، والبيئة المضطربة التي عاشها الشاعر الأندلسي ، انطوى شعره على الكثير من البكاء، والمأسى . وإذا وصلنا إلى هذا النوع من الحنين لم نكد نخرج عما قدمناه ــ سابقا ــ من أن قصائده في هذا المجال قد اتسمت بالذكرى الصادقة ، وازدانت بمعاني الشوق الأصيل التي يعبر عن وفائه لأهله واصدقائه وأخوانه وتشوقه لهم. فالجزار السرقسطي يتمنى لو يعود الشمل ، ويجمع الجمع في ظل تلك الطبيعة وبين ربوع ذلك الوطن:

عسىٰ وطــنٌ أودىٰ بألفتنــا شَــحطا يقربنـــا زلفـــىٰ ويُنظمنـــا سِـــمطا
لأَ سرعَ ما أمضىٰ التفـرقَ سـهمَه فأصمىٰ فؤاد القـــرب منّــا ومــا أخطــا
ووصلتُكم كانتَ مــن الدهــرِ منحــةً فما بالُــهُ اليـومَ اســتردّ الــذي أعطــىٰ
ألا ليتَ شِعري هل يُرىٰ بَعدُ سَــامحاً بعهدِ تصابٍ كنــتُ فــي عقــدهِ وسـطىٰ

ولكم نلحظ هذه المشاعر العفوية الصادقة تجاه الخلان والأحباب، أما عن الموطن فما شانه منكر، وما سمع بها لغطا، ولو عرفه امرؤ القيس ــ المشهور ببكائه الأطلال ــ لما ذكر أطلاله أو بكى عليها :

وأربــعَ عَــرفٍ لــم يشــنها بمُنكــرٍ ولــم تســمعْ الآذانُ منــها بــها لَغْطــا
لو أن امرأ القيسِ بن حجــرٍ يحلّــها لا قصّرَ عن أن يذكرَ الجزعَ والسّــقطا(١)

وفي قصائد أخرى(٢)، لم تخرج عن هذه المشاعر، أو عن هذا البكــاء نظــم شــعراء آخرون في هذا العصر ــ المرابطين ــ وتدل الاشارة إلى أن أغلب هــذه النصــوص كانت مقدمات لقصائد في المديح ، وأن هذه المقدمات استاثرت بمثــل هــذا البكــاء ، والصراخ لاستمالة الممدوح وتحريك إياديه.

وعودٌ إلى تلك الدلالات التي كانت مصدراً مهماً لمصادر الحنين والتي رســمت الطبيعة الأندلسية بكل مظاهرها رسماً يستنطق مشاعر الشاعر ، ويتأخذه رمزا نفســيا ليدل على حالة لاشعورية تقف خلف استخدامها ، لا يتأخر ابن خفاجة في مزج مشاعره في الحنين بعلاقاته بأحبائه وأقرانه. ففي قصيدة يتشوق فيها لصديقه أبي العلاء بن زهر (ت٥٢٥هــ)(٣)يستدعي فيها ريح الصبا التي تفوح من نبات الرند ليعبر فيها عن نفــس عليلة ملتاعة، لطول البعد، وكثرة الفراق:

وعلــلْ بريّــا الرنــدِ نفســاً عليلــةً مع الصبح ينَـدى أو مــعَ الليــلِ هاديــا
وتهفو صبا نجــدٍ بــهِ طيــبُ نفحــةٍ فيلقى صبــا نجــدٍ بمــا كــانَ لاقيــا(٤)

وكم هو عجيب هذا الحنين، وهذا التواصل الروحي الذي يقول فيه:

أحــنُّ إليــهِ حنّــةَ النيــبِ هجّــرت وقد ذكَــرتْ مــاءَ العضــاهِ صَواديــا(٥)

---

(١) ديوانه: ص١٦٦ــ١٦٧.

(٢) ينظر: شعر ابن السيد البطليوسي: ص١١٢ــ١١٣، الخريدة:١٢/٢١٤ــ٢٢٤، أخبار الملــوك ونزهــة المالك والمملوك في طبقات الشعراء:الملك المنصور محمد بن عمر الأيوبــي (ت٦١٧)، تحقيــق: د. ناظم رشيد، دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد، ٢٠٠١م، ص١٤٤.

(٣) أبو العلاء بن زُهر بن عبد الملك الأيادي ، كان قاضياً وطبيباً بارعاً من أهل اشبيلية وأعيانــه. ينظــر: الذخيرة: ٢/١/٢٢٠، المطرب من اشعار اهل المغرب :ص٢٠٣، بدائع البدائه :ص٣١٠، التكملــة لكتــاب الصلة : ابن الابار ، تحقيق عزت الحسني، مطبعة السعادة ــ مصر ، ١٩٥٥، ١/٢٣٤. نفح الطيب: ٣/٤٦٢.

(٤) ديوانه: ص ٢٠٠.

(٥) م. ن:ص٢٠١. العضاة: كل شجر له شوك صغر أو كبر، الواحدة: عضاهة.

وحتى في قصائده التي قالها بعد سقوط شقر، لم ينس ابن خفاجة ذكريات خلانه ومعاهد أصحابه، فاتشحت تلك القصائد بالمرارة تلو المرارة، واللوعة خلف اللوعة:

فيا ليتَ شعري هَل لدهري عطفةٌ ... فتَجمعَ أوطاري علَيَّ وأوطاني
ميادينُ أوطاري ومعهدُ لذَّتي ... ومنشأُ تهيامي وملعبُ غزلاني
فسُقياً لواديهم وإن كنتُ إنَّما ... أبيتُ لذكراهُ بغُلَّةِ ظمآن[1]

وفي قصيدة أخرى يبقى هذا الحنين الجارف في نفس ابن خفاجة على الرغم من سلو صاحبه عنه، وهو أيضاً يوظف الطبيعة بأشكالها ــ كالنسيم وصوت الحمام المؤرق ــ غاية التوظيف، فيأتي بالصورة اللطيفة المعتبرة:

ولئنْ سلوتَ وما أخالكَ ناسياً ... كرمَ الاخاءِ فإنَّني أتشوَّقُ
ويهيجني نفسُ النسيمِ إذا سرى ... ويشوقني فيكَ الحمامُ الأورقُ
خفقتْ لذكراكَ أضلعي فكأنَّ لي ... في كلِّ جانحةٍ جناحاً يَخفقُ
وتملكتني لوعةٌ مشبوبةٌ ... شوقاً إليكَ وعبرةٌ تَترقرقُ[2]

(ومن هنا كان ابن خفاجة مشغولاً بدائرتين متشابكتين هما: دائرة المكان ودائرة الزمان. أما دائرة المكان؛ فإطارها شُقر، والأندلس. وأما دائرة الزمان. فإطارها يدور حول أيام الصبا والشباب، وما كان يكون في الشباب من صبوات، وما يكون معها من صداقات وأصدقاء:)[3].

إذا ما انتقلنا إلى العصر الموحدي، كانت مشاعر الحنين إلى الاهل والأحباب والخُلان كما هي عليه في عصر المرابطين. ففي كل زمان يلقى المرء أصحاباً يعيش بينهم أيامه، فيصيبه ما يصيبهم من أشجان وأفراح، ويبكي إذا فقد واحداً منهم، ويحن إذا أجبرته الظروف على تركهم. هذا الرصافي البلنسي يشتاق لأحد هؤلاء الأصحاب، ويعتذر إليه لعدم زيارته، فالمنازل بعيدة، والطريق طويل. وهنا نلحظ تجسيداً حقيقياً للمكان الذي يفصل بين الأخوين ــ الشاعر وخله ــ:

وإنِّي وإنْ كنتُ الخليَّ لشَيِّقٌ ... إليكَ على بُعدِ المنازلِ والقُربِ

(١) ديوانه: ص ٣٤٥.

(٢) م. ن: ص٢١٢.

(٣) في الأدب الأندلسي: (الداية): ص٣٣٥.

خَلا أنّ حَـالاً لـو قضت بتفرّغـي إلـىٰ لازمٍ مـن حـجِّ منزلكَ الرحـبِ
لقمتُ لَـهُ مـا بيـنَ أعـلامِ ريـةٍ وبينَ جمىً وادي الأشـاءِ مِـن الـتربِ
وبعدُ فلا يعطشنَّ أبـا الحسـنِ الحيـا بلادكَ والتّفتّ عليـكَ حُلىٰ الخِصْبِ[1]

ويرسل ابن زهر الحفيد (ت٥٩٥هـ) أبياتاً رقيقة من مراكش يتشوق فيها لولده الصغير الذي تركه في اشبيلية، وهذه الأبيات تبرز أثر البعد المكاني الذي يفصل بين الأب وابنه، وكم هو كبير عامل الشوق الذي يكاد يتعب في رواحه ومجيئه بين الطرفين:

ولـي واحـدٌ مثـلُ فـرخِ القطـا صغـيرٌ تخلّـفَ قلبـي لديـهِ
نـأتْ عنـهُ داري فيـا وحشـتا لـذاكَ الشـخيصِ وذاكَ الوجيـهِ
تشـوّقني وتشـوقتُهُ فيبكـي علـيَّ وأبكـي عليـهِ
لقـد تعـبَ الشـوقُ مـا بيننـا فمنـهُ إلـيَّ ومنّـي إليـهِ[2]

والناظر في شعر صفوان بن إدريس المُرسي[3] ليرىٰ الكثير من الأخوانيات، وفيها يراجع شاعرنا المُرسي اخوانه الذين بعثوا له بقصائد يراجعهم بمثلها ، فيبادلهم حديث الذكريات ، ويبكي معهم تلك المنازل التي كانوا يلهون بأُنسها ، ويمرحون بين ربوعها، وعلىٰ الرغم من هذه الوفرة في أدب المراجعات الذي طغىٰ علىٰ أخوانيات المُرسي إلا أن عامل الحنين فيها بدا ضعيفاً. خلا مقطوعة راجع بها الشاعر ابن مرج الكحل، إذ ربما تكون هذه المقطوعة هي الأقرب إلىٰ الحنين، كما أن أثر المكان ظهر فيها ــ جلياً واضحاً ــ يقول المُرسي:

يا قـاطعَ البيـدِ يطويـها وينشـرُها إلـىٰ الجزيـرةِ يُنضـى بُـدنَ العيـسِ
ألثمْ بها عَن أخـي حُـبٍ وذي كلـفٍ يَدِ العُـلا والقوافـي وأبـنَ ادريـسِ[4]

---

(١) ديوانه: ص٣٧ــ٣٨.

(٢) بحوث اندلسية : د. محمد مجيد السعيد ، منشورات المجمع العلمي العراقي -بغداد ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص٦٦.

(٣) ينظر: مجموع شعره: ع٤: ص١٩٥، ص١٩٩، ص٢٠٣، ص٢١١.

(٤) م.ن: ع٢ص١٦٤. وينظر: ديوان الششتري: ص٦٨، المُغرب: ٢/٣١٨، فوات الوفيات: ٣/٥٦ــ٦٦.

وإن أرسل ابن زهر أبياته إلى ولده. فقد جرى الأمر عكس ذلك عند ابي عثمان سعيد بن حكم (ت٦٨٠)[١] إذ أرسل أبياته إلى أبويه من المرية، وإن اختلفت الصلات فما أختلفت المشاعر، فبقي الشوق يُعمر الجنان ، ويهمي العيون، ويدور على الألسن:

فراقٌ ومالي بالفراقِ يدانِ ... إلى اللهِ مِمّا جرّهُ الملوانِ
قضى اللهُ أنْ احتلَّ بالشرقِ برهةً ... وإن كانَ بالغربِ القصي مكاني
ففارقتُه والنفسُ تأبىٰ فراقَهُ ... وغادرتُهُ والشوقُ حشوَ جناني
لئن كنتُما عن ناظري حجبتما ... فإنكما في خاطري ولساني[٢]

وفي عصر بني الأحمر؛ ربما نجد أن هذي الصلات الأخوية قد زادت عمقاً، وأصبح الشاعر أكثر ارتباطاً وحنيناً بمعاهد خلانه، ومراتع أترابه ولداته. فقد شاهد الشاعر في هذا العصر تغيرات كثيرة، وتطورات عدة، وشمل هذا التغير النفوس التي خربت، وتملكتها هواجس الحقد والحسد. وما سقوط المدن وانهيار السلطات والفتن الداخلية. إلا أن نزاع النفس الشريرة، وطموحاتها التي لا تقف إلا عند تدمير الاخرين. والسيطرة على ما بحوزتهم. وكي لا نستطرد في هذا الموضوع المؤلم . أسبابه ونتائجه، نعود لنجول بين أخوانيات الغرناطيين . ونلمس مدىٰ شوق وحنين بعضهم لبعض . ابن الجياب الذي وردت الأخوانيات في شعره بوفره كثيرة جداً[٣]، ما كاد لينسىٰ كوامن الشوق العارم لصديقه أبي القاسم الشريف السبتي ، الذي كانت تربطه به صلات حميمة، وعلاقة قوية:

لا يلبثُ الشوقُ المبرحُ لمحةً ... حتىٰ يمرُّ إليهم ويؤوبا
فتراهُ خطفةَ بارقٍ سرعانَ ما ... شَمِلَ الشمالَ سناً أضاءَ جنوبا

---

(١) سعيد بن حكم الطيبري، حكم منورقة ابتداء من سنة ٦٣١، فحُمدت سيرته وسار فيها سيرة حسنة، صار مقصد طلاب العلم والشعر. له مطارحات ومراسلات مع أدباء عصره. ينظر: الحلة السيراء: ٣١٨/٢، اختصار القدح المعلى: ص٢٨ــ٤١، المُغرب: ٤٦٩/٢، عنوان الدراية: ص٣٠٢، الذيل والتكملة: ٢٨/٤ــ٢٩: ابو عثمان سعيد بن حكم صاحب جزيرة منورقة: د. محمد فرج دغيم. مجلة مجمع اللغة الأردني، عمان، ع٥٩، سنة ٢٤، ١٤٢١هــ ــ ٢٠٠٠، ص١١ــ١٥.

(٢) اختصار القدح المعلى: ص٣٨، أبو عثمان سعيد بن حكم صاحب منورقة: ص٢٣. وللمزيد ينظر: شعر ابن جبير: ص١٠٥، ديوان ابن الجنان : ص١٠٠، نفح الطيب: ٤٧٥/٤.

(٣) ينظر: ابن الجياب الغرناطي (حياته وشعره) : ص٢٩ــ٢٢٠.

أذكـى لـهيباً مـن زفـيرِ صـاعدٍ فانـهلَّ مـاءُ العيـنِ منـهُ صبيبـا[1]

وعلى الرغم من عظمة هذا الشوق ، وأن المناسبة هي أحد الأعياد التي ذكرته تلك الأيام وهاتيك الأوقات. إلا أن ابن الجياب لا يألو جهداً في أن يتحدث عن الغربة التي يعانيها في غياب صديقه، خاتماً قصيدته بالتحية:

بَعُدَ المزارُ فـلا تَسَـلْ عـن غربـةٍ قـد أوحشـتْ قلبـاً بِـها مقلوبـا
وعليكَ يـا معنـى الكمـالِ تحيـةً كالمسكِ قـد مـلأَ المسـالكَ طيبـا

لقد حفلت أخوانيات ابن الجياب بألفاظ الدعاء والمدح والمحبة . كما جاءت في جانب منها لمواساة أحبابه وتأثره البالغ بما يصيبهم. وكذلك نظم ابن الجياب بعض مراسلاته مع تلميذه ابن الخطيب وفيها يتحدث عن الصداقة المتينة التي تربطه بتلميذه. وقد حاول الحساد أن يقطعوا حبل هذه الصداقة ، ولكنهم فشلوا في الحصول على بغيتهم ومرادهم[2]. ويحفل ابن الجياب بأصدقائه في حلهم وترحالهم، في حضورهم وغيبتهم ويتحسر على فراقهم إذا حكمت عليهم الأحوال لكي يرحلوا من جيرته. وقد كتب شاعرنا قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله الحسيني[3] عندما شمَّ هذا الخبر بالرحيل. نقتطع منها قوله:

يـا سـيدي يـا نخبـةَ الأشـرافِ والواحـدَ المعـدودَ بـالآلافِ
سِرْ فـي ضمـانِ اللهِ محفوفـاً بمـا تَـهوى مـن الاسـعادِ والاسـعافِ
وإذا حللـتَ فحُـلَّ حيـثُ تحلـهُ فضـلٌ مـن الرحمـن بـادٍ خـافِ
قـد كنـتَ جـارَكَ اسـتضيءُ بغُـرةٍ علويـةٍ نبويـةِ الأوصـافِ
وأرى بوجـهِكَ وجـهَ أحمـدَ طالعـاً كالشمسِ مـا حيـةِ دُجـى الأسـلافِ[1]

(١)ابن الجياب الغرناطي (حياته وشعره): ص ٢٣١ـــ٢٣٣.

(٢) ينظر: م. ن: ص٢٣١ــ٢٣٣.

(٣) قال عنه د. النقراط (لم نعثر له على ترجمة)،ابن الجياب (حياته وشعره) : ص٢٠. وكذلك نحن.

(٤) ابن الجياب (حياته وشعره): ص٢٤١، السدف: الظلمة، والليل وسواده.

أما ابن خاتمة(1)؛ فراح يناشد أحبة قلبه كلهم،ويتساءل هل يبلغ المشتاق ما يدمنله يوما؟ وهو أن يحظى بقربهم، ويصل ما انقطع من حبل مودتهم. في حين يوظف ابن الخطيب لفظة القتاد ــ الشجر الشائك ــ ليحملها دلالة نفسية تصف ما يلاقيه من عذاب سببه غياب صديقه:

يـا ابـا الفضـلِ إن تغـبْ عَـن سـوادِ العيـنِ مـا غبـتَ عـن سـوادِ الفـؤادِ
صـارَ يـومُ السـرورِ بعـدكَ ليـلاً ووثـيرُ المـهادِ شـوكُ القتـادِ(2)

(فالقيمة الفنية للفظة (القتاد) في النص كمفردة تراثية تتجلى في مقدرة الشاعر على توظيفها توظيفاً فنياً ينسجم مع حالته النفسية غير المستقرة)(3).

ولعبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هــ) ، قصيدة يبكي فيها الديار التي هجرها ساكنوها، وخلفوه متقلاً بالهموم يذرف الدموع في ربوعهم ويمني نفسه بنسمة أو طيف يعيد في نفسه الأمل والفرح:

حيِّ المعـاهدَ كـانتْ قبـلُ تحيينـي بواكـبِ الدمـعِ يُرويـها ويظمينـي
سقتْ جفوني مغـاني الربـعِ بعدهـمْ فـالدفعُ وقـفٌ علـى اطلالـهِ الجـونِ
أحبابنـا هـل لعـهدِ الوصـلِ مذّكـرٌ منكم وهـل نسـمةٌ عنكـم تُحيّينـي؟!(4)

لقد قال هذا النص ــ المفعم بالحنين والشوق ــ حين وصل إلى الاندلس سنة ٧٦٤ للهجرة. وأنضم إلى السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر (ت٧٩٣هــ) ملك غرناطة ، ونال إكرامه، ولقي عنده التقدير والاحترام ، وأرسله رسولا إلى ملك قشتالة الأسباني رغبة في الصلح، فأحسن السفارة وعاد إلى غرناطة، وكانت الاحتفالات آنذاك قائمة ابتهاجاً بمولد النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ فوجد

(1) ينظر: ديوانه: ص ٥٠.
(2) ديوانه: ص ٤٤٩.
(3) الأخوانيات في الشعر الأندلسي من عهد الطوائف حتى أفول الحكم العربي (٤٢٢ــ٨٩٨هــ): عباس أحمد سالمين: (اطروحة دكتوراه) كلية الاداب في جامعة بغداد . ٢٠٠١، ص١٨٧.
(4) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٩٥١، ص٨٥.

الفرصة طيبة للمشاركة في مثل هذه التظاهرة الشعرية[1]، ووجد في هذه الذكرى متنفسا عن همومه، وشكواه. فعلى شاكلة أبياته الأولى من الأسلوب السهل، والديباجة الواضحة (يخاطب أهل نجد، ويعد ديارهم جنة الفردوس وهم عينها ، يصبو إليهم ، ويهفو قلبه للقائهم)[2]:

يا أهلَ نجدٍ مَا نجدٌ وساكنُها حسناً سوىً جنةِ الفردوس والعينِ
أعندكم أنني مَا مرَّ ذكركُم إلا انثنيتُ كأنَّ الراحَ تثنيني
أصبو إلى البرقِ من أنحاءِ أرضكِمُ شوقاً ولولاكم ما كان يُصبيني[3]

ويتعرض في قصيدته إلى أولئك الذين جفوه وأضاعوه في المغرب حتى اضطر إلى الرحيل عنهم، ومفارقة ديارهم، فكان هذا الرحيل خيراً واحساناً ، لأنه آوى إلى حرم، آمن ، وأناس خيرين يعرفون حقه، ويحفظون مكانته:

مَن مبلغٌ عنّي الصحبَ الأولىُ تركوا وُدّي وضاعَ حماهم إذ أضَاعوني
أني أوديتُ من العليا إلىُ حرمٍ كادتْ مَغانيه بالبشرىُ تحييني
وأنني ظاعناً لم ألقَ بعدَ همُ دهراً أشاكي ولا خَصماً يشاكيني[4]

ولم تكن صورة البرق التي جاءت بها أبيات ابن خلدون راسمة حنينه وشوقه جديدة في شعر أهل الأندلس، فمن قبله أودعتها حفصة الركونية أبياتها التي تبدو (أكثر عمقاً وأكثر دقة في التصوير ، فهي تشخص ذلك البرق وتطلب من الآخرين أن يسألوه إن كان باقياً على تذكيرها بأحبابها أم تقاعس عن مهمته)[5]، تقول:

---

(١) ينظر: التعريف بابن خلدون ورحلته: ص٨٥، الاحاطة: ٣/٥١٤، نفح الطيب: ٦/١٨٩.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون شاعراً : د. ناظم رشيد، بحث في كتاب:(قطوف دانية- مهداة للدكتور ناصر الدين الأسد) بيروت، ١٩٩٧، ص١٤٢٣.

(٣) التعريف بابن خلدون ورحلته: ص ٨٦، عبد الرحمن بن خلدون شاعراً: ص ١٤٢٠.

(٤) التعريف بابن خلدون ورحلته: ص٨٧، عبد الرحمن بن خلدون شاعراً: ص١٤٢٤-١٤٢٥.

(٥) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: ص ٣٢٣.

سلوا البارقَ الخفّاقَ والليلُ ساكنٌ أظلَّ بأحبابي يذكّرني وهنا؟!
لعمري لقد أهدىٰ لقلبي خفقةً وأمطرَ عن منهلِّ عارضهِ الجفنا[١]

إن جمال الصورة وبراعتها تكمن في لحظة سطوع هذا البرق في ذلك الليل الساكن الصافي، فهو ــ البرق ــ يوحي بالتأمل ، ويهيج الذكرى لاسيما تجاه ماض فقد، وأحبة هجروا: ومكان اندرس. فالبرق بضوئه الخافت اللامع شق هذا السكون الكوني. وزاد في خفقات قلب شاعرتنا حنيناً وتوقاً لذلك الماضي، وأولئك الأحباب وذلك المكان.

وجاء بعد حفصة وابن خلدون يوسف الثالث ليستغل صورة البرق وما يثيره من حنين ليودعها شعره. الذي كثرت فيه سمات الحنين بصورة عامة. وفي صورة يوسف التي سنعرضها تترك للمكان حرية كبيرة، وتأخذ مساحة أوسع من أبيات حفصة السالفة، فلنستمع قوله:

ومما أهاجَ الوجدَ منّي والبُكا وميضٌ بأعلىٰ الرقمتينِ يلوحُ
تعرّضَ من دون المُصلىٰ ودونَه مجالٌ لا يدي الناعجاتِ فسيحُ
بليلٍ كأنَّ الشُّهبَ فيهِ فوارسُ يسلُّ عليها للبروقِ فَصيحُ
فمن بينَ هاوٍ قد تكدّر واختفىٰ وآخرَ خفّاقُ الفؤادِ جَريحُ[٢]

أن الأبيات تبحث في معنىً آخر، وتتمحور ودلالة أخرى لذلك الوميض، فإن كانت أبيات حفصة أكثر عمقاً ودقة في التصوير لأنها تناشد حبيبها الذي فقدته وقتلته أيدي الواشين (!) فإن الحنين الذي تفوح منه أبيات يوسف الثالث أكبر عاطفة. وأكثر صدقاً. فالوميض أثار مشاعر الملك المُضام ، وأبكىٰ وجدانه وفؤاده، وأثار أيضاً تلك الذكرىٰ المريرة التي فقد بسببها ملكه صغيراً، وبكاه كبيراً وهو الفارس البطل الشجاع الجديد بالملك والسلطة ...

وفي أبيات يوسف الثالث نلمح أثر الشكوىٰ والأسىٰ الذي أثارته صورة ذلك الوميض. فقد شملت تلك الشكوىٰ وتجاوز ذلك الأسىٰ إلى أكثر من بيتين وأكثر من اللوحة التي مثلنا بها، فجاء بقصيدة كاملة، ليتكلّم عن وحشة الليل وظلمته التي تثير

(١) المغرب: ٢/١٣٩، نفح الطيب: ٤/١٧٦، الشعر النسوي في الأندلس: ص١٠٣، الشعر النسوي الأندلسي (أغراضه وخصائصه الفنية): ص١٧٤.

(٢) ديوانه: ص ٢٧.

الشجن، وتجلب الوحدة وتبكي الذكريات الماضية. ومع كل هذه المشاعر فإن شاعرنا لا ينسى أن يتفاءل بالمستقبل . وأن يبدد ظلام ذلك الليل، وتلك الوحشة والغربة مهما طالت وكبرت. يقول:

فإنْ يكُ ليلُ الهجرِ ليسَ بمنقضٍ فللوصلِ وجهٌ بالصباحِ صَبيحُ[1]

ولم تكتفِ الدلالات الرمزية لمظاهر الطبيعة للتعبير عن مشاعر الحنين ، ولم يكتفِ الشاعر الأندلسي بأحاديث الماضي والذكريات لاستذكار تلك الاماكن . بل واستقصى أيضا أسماء الأطلال والدوارس التي كانت تعبر عن شوق لتلك الديار وأهلها. وذكر الأطلال من الحنين عند الشاعر العربي عموما والأندلسي خصوصا[2]. فما ذكر امرئ القيس والجزع والسقط ونجد والحمى..وغير ذلك من المعزات التراثية إلا لتنقل من واقعها التاريخي ورمزها الأدبي لتصبح ذات بعد وجداني يربط بين شاعر الشاعر الأندلسي الذاتية وتعبر عن واقعه المعاش. ويثير يوسف الثالث سؤل هذه الرؤية التراثية لهذه الأسماء ، وبين ما تشير إليه:

أسامٍ تزيدُ العاشقينَ تحيّراً قد اتفقتْ مَعنىً كما اختلفتْ اسما

وهل هذه الأسماءُ إلا إشارةٌ لمستفهمٍ في شأنِها يحسنُ الفَهما[3]

(فالشاعر الأندلسي عندما يذكر "الرسوم والأطلال" عند مخاطبة من يعز عليه من الاخوان والأصدقاء فهو لا يعني تلك الشواخص الجاهلية بعينها، وإنما يعني بذلك ذكرياته لأيام انقضت ، وقد تركت في وجدانه ما يتركه الطلل من أثر في نفس صاحبه الجاهلي. وهذا في حد ذاته يعد شكلا من أشكال توظيف التراث في الشعر، بحيث تصبح الحالة التراثية حالة محاصرة يعيشها الشاعر)[4].

بعد كل ما قدمناه في شعر الحنين وما جلبناه من قصائد عبرت عن أحوال منشئيها في ظروف صعبة، وأوقات حرجة ، فجاءت قصائدهم قطعة من أكباد وقلوب

---

(١) ديوانه: ص٢٧.

(٢) ينظر: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي : ص٢٠٧.

(٣) ديوانه: ص١٦٦. وينظر: زاد المسافر: ص٩٥، أعلام مالقة: ص٩ــ١٠٠، ديوان ابن الحطيب: ص٤٠١ــ٤٠٢، الاحاطة : ٣/٤٣٦ــ٤٣٧

(٤) الأخوانيات في الشعر الأندلسي: ص١٨٩.

تحترق شوقاً لبلدانهم وأهليهم. لنا وقفة مع الدكتورة سلمى الجيوسي التي درست الادب الأندلسي، شعره ونثره، شعراءه ووشاحيه، موضوعاته وأغراضه، وخرجت بالقول من دراستها لغرض الحنين: (وربما كان أهم جنوح للشعر الأندلسي عن مسار الشعر في المشرق هو ضعف عنصر الحنين فيه بالنسبة إلى الشعر المشرقي. ويتضح هذا النقص حتى عند شاعر شديد التعلق بالقديم مثل ابن هانئ)[1]. ولا أدري ما الذي يربط الحنين بالقديم؟ ولا افهم ما علاقة ابن هانئ بهذا القديم. هل لأن ألفاظه بدوية؟ وصوره جاهلية؟ والبنى التركيبية في بعض قصائده جرت على النمط الجاهلي القديم؟ فأين ذهبت نزعته الشيعية وشدة محاكاته لألفاظ وأحكام هذا المذهب في شعره؟ وأين القديم من شاعر عاش في القرن الرابع الهجري وفي بيئة مختلفة تمام الاختلاف عن كل ما يمت إلى القديم بصلة ــ في الدين والتاريخ والأدب ــ؟! إن مدائحه الطوال هي التي فرضت عليه مثل تلك الألفاظ والصور والبنى، فمن البداهة أن يلجأ الشاعر المداح ــ في أي عصر ومصر ــ لغزليات امرئ القيس، وحوليات زُهير بن أبي سُلمى. واعتذاريات النابغة . ومدائح الأعشى . فما دامت قصائده طويلة فستحاكي لوحات عدة، ومقاطيع كثر في: الطلل والغزل. والرحلة نحو الممدوح.. وهلم جراً.

ثم قالت الدكتورة الفاضلة إن طبيعة الحنين في الشعر العربي طبيعة تراثية انحدرت إليه من الجاهلية ومن حياة الإنسان المتنقل في الصحراء بحثا عن الاستقرار والكلأ، وأن هذا الترحال والتنقل هو الذي يفرض على المرء الحنين، ويبعث فيه الشوق[2]. وللرد على هكذا تصريح يمكن القول:

أ ــ إن الحنين مرتبط بالمكان أصلاً، ولا علاقة للزمان بشيء إلا بمقدار ما يتعلق بالمكان. وهنا لا حاجة لي أن أسوق آراء باحثي ودارسي الأدب، أو آراء باحثي ودارسي علوم الاختصاصات الأخرى المتعلقة بالأدب وبالنص الشعري كعلم النفس ، وعلم الاجتماع وغيرهما، فالمسألة واضحة وضوح الشمس في النهار.

ب ــ هل تريد الباحثة الكريمة لشاعر مترف متحضر كالشاعر الأندلسي أن يهجر بلده المترف المتحضر ويسكن الصحراء حتى يشعر بلوعة الحنين وألم الفراق؟

---

(١) الشعر الأندلسي ــ العصر الذهبي ــ : ضمن بحوث (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس):١/٤٨٧ .

(٢) في الصفحة ٥٢٤ من البحث نفسه؛ كررت الدكتورة الجيوسي موضوع الصحراء وهي تتحدث عن شعر الطبيعة في الأندلس، زاعمة أن هذا الشعر على وفرته لا يتصل بالتراث ، ولا يصل إلى جمال الصحراء، وعلاقتها بالإنسان البدوي في العصر الجاهلي(!!).

أو أن يترك موطنه الغني بالمياه والخيرات ليتنقل باحثاً عن الماء والكلأ فيشعر بكيفية الاستقرار والأمان؟ ومن ثم يحس بمعاناة البعد لأهله ووطنه؟؟!!

جـ ـ وإذا آمنا أن الحنين نزعة زمانية ، ارتبطت بوقت معين أولاً ثم في مكان معين ثانياً، وأقصد هنا ما ارادته الباحثة في كلامها (الجاهلية والصحراء) . أقول :

لم قصرت الباحثة الزمن على الجاهلية ـ المدة التي سبقت الإسلام؟ فإذا كانت المسألة متعلقة بالزمن فالحنين بدأ منذ سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ عندما أُخرج من الجنة. وما نفعله اليوم من عبادات وأعمال صالحة إلا لنعود لتلك الجنان، وذلك النعيم، فهو مقامنا الأخير، وفيه حياتنا السرمدية الباقية.

إن كل ما طرحناه ـ شعراً وآراء ـ لا يخرج عن فكرة جوهرية مفادها أن شعر الحنين يدلّ ـ أولا وأخراً ـ على تعلق الشاعر ـ الأندلسي وغيره ـ بموطنه ودياره، وليس هذا التعلق مرتبطاً بابن هانئ ، أو حكراً على القديم من الشعر. فلكل مكان خصائصه وحوادثه ، وهذه الخصائص والحوادث هي التي تتحكم في مشاعر ساكنيه، فرحاً وحزناً وألماً وشوقاً وبكاءً ورفضاً.

المبحث الثالث: البكاء والندب.

لا أعلم فيما أعلم أن بلاداً أحاطت بها الرعاية والعناية مثل بلاد الأندلس، من حيث الاهتمام بها من مناحي الحياة المختلفة. لما أسْبغ الله ـ سبحانه ـ عليها من أسباب الثراء والنعيم والترف، ولما منحها من مظاهر الجمال والطبيعة الساحرة، التي تبهج القلوب، وتُسحر العيون، ولذا ؛ كان فقد هكذا مكان بمثل هاته الأسباب والمظاهر فقداً مؤلما على قلوب أهله وأبنائه في حقبهم المختلفة.

وبهذا الفقد برز لون جديد من الرثاء في الشعر العربي. ذلكم هو فن رثاء المدن والممالك الذي ارتبط ظهوره برثاء المدن الأندلسية، إذ (طُبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص. فعُدّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة ، وعلى قصائد رثاء المدن والممالك في المشرق بصورة خاصة)[1]. وقبل أن نسترسل في عرض النصوص الشعرية التي يبدو فيها شاعرنا الأندلسي باكياً متحسراً لفقدان وطنه ـ وهي للأسف كثيرة جداً ـ سنحاول أن نجمل بعض صفات وميزات هذا اللون من الرثاء، جامعين بين آراء الباحثين الذين سبقونا في هذا المجال معنيين بموضوعنا المكان، وما يخصّه من تلك الصفات والمميزات.

وأهم تلك الصفات والخصائص كما رآها أولئك الباحثون والدارسون:

١ ـ **شدة العاطفة** ، وصدق الاحساس الذي اعتلى تلك القصائد التي قيلت في رثاء المدن الأندلسية، ولاسيما العاطفة الدينية الممزوجة بالنواحي الإنسانية[2]. وقد (استطاع التأريخ أن يخلد عدة قصائد بسبب صدقها وقوة عاطفة قائليها الدينية)[3].

٢ ـ **ارتباط هذا الرثاء بغرضين آخرين**،هما: الحنين إلى تلك الديار والمواطن والاستنجاد وطلب الاستغاثة لها[4]. ففيما يخص الغرض الأول فقد (بكى الشعراء مدنهم وندبوها وحنوا إليها ووقفوا على أطلالها في شعر حزين مبكٍ. فأدخلوا بذلك إلى هذا النمط الشعري حنينهم إلى الأرض والأهل)[5].

---

(١) الأدب الأندلسي: (د. منجد)، ص٣٠٤.

(٢) ينظر: في الأدب الأندلسي: (الفقي)، ص٢٨، الادب الأندلسي ـ موضوعاته وفنونه ـ بص٥٦١، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص٣١٦.

(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١١٢.

(٤) ينظر: الأدب الأندلسي ـ موضوعاته وفنونه ـ :ص ٥٦١.

(٥) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١٠٧.

وأما فيما يتعلق بالغرض الآخر؛ فقد علا (استصراخ الشاعر وطلبه النجدة من المسلمين في ديار الإسلام بالمجاهد إلى النصر أو إلى الجنة، وكان الاستنجاد يأخذ أشكالاً شتى ، يكون أحيانا بالمديح والتوريط، وأحياناً أخرى بالتعنيف والتقريع ، وأحياناً ثالثة بالدعوة إلى الجهاد الديني)[1].

٣ ــ شملت قصائد الرثاء نقداً لاذعاً للأوضاع السياسية المتردية والأحوال الاجتماعية المتهاوية ، بحيث نستطيع القول: (أن خيوط النقد السياسي أو الاجتماعي تشابكت في نسيج هذا الرثاء، وتوحدت في لحمتها وسداها، إذ يندر أن تأتي قصيدة رثائية لمدينة أو مملكة خالية من النقد، الذي هو صورة من صور تعليل النكبة أو الخسارة)[2].

٤ ــ التعصب للمدينة وليس للوطن كله. فمثلما برز الحنين والشوق لمدينة الشاعر الأندلسي ، ومن قبلهما نشأت الغربة لمفارقتها. وقف هنا ليرثيها ويصف ما حلّ بها. وقد عَدّ د. يوسف الطويل أن هذا التعصب هو المأخذ الوحيد على شعر الرثاء في الأندلس إذ (اختصت كل مدينة منكوبة بشاعرها الذي عاش في كنفها. ونادراً ما بكى شاعر مدينة غير مدينته)[3]. وقد لا نوافق الدكتور الطويل في نقده لهذه الخصوصية فقد (أحبَّ الشاعر العربي مدينته ، وعاملها معاملة الإنسان حبيبه، فمدحها ووصفها وفخر بها، وعاتبها ورثاها، بل؛ وحتى هجاها. ولا تخفى الصلة الحميمة والمودة الصادقة بين الإنسان ومدينته وبلده وبيئته)[4].

٥ ــ الصدق الشعوري (الألفاظ والمعاني)؛ إذ غلبت الروح الفلسفية على ألفاظ ومعاني هذه القصائد ، بحيث تجلّى ذلك كلّه في شعر الحكمة الذي لازم هذا الغرض الشعري في معظم نماذجه. وغدا من أهم خصائص رثا المدن في الأدب الأندلسي[5].

---

(١) الأدب الأندلسي ــ موضوعاته وفنونه ــ :ص٥٦١. وينظر: في الأدب الأندلسي (الفنون): ص١٥٨. الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص٣٠٩.

(٢) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي: ص٣٢٢ــ ٣٢٣

(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١١٢.

(٤) رثاء غير الإنسان في الشعر العباسي: عبد الله عبد الرحيم السوداني، الامارات ، المجمع الثقافي ــ أبو ظبي، ١٩٩٩، ص٢٥.

(٥) ينظر: ملامح الشعر الأندلسي: ص٣٢١.

وإذا كانت القاعدة النقدية تقول: (إذا أراد الشاعر أن يبكينا فعليه أن يبكي أولا)[1]. فإن الشعراء الأندلسيين في مرحلة سقوط المدن بكوا صادقين فتركوا وراء ظهورهم شعرا يثير الشجى والألم في نفس كل من يقرأه أو يسمع به، فلنستمع إلى هذا الشعر متأملين خاشعين ، متعظين.

ابن خفاجة يذرف الدمع على ما اصاب بلنسية من خراب ودمار بعد احراقها:

عاثتْ بساحتِكِ العِدا يا دارُ ومحَا محاسنَكِ البلى والنارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بإهلِها وتمخّضتْ بخرابِها الأقدارُ[2]

ويبلغ التحسر مداه حينما يشعر أبو القاسم السهيلي الأعمى (ت ٥٨١هـ)[3]، أن وطنه ــ وادي سهيل ــ قد سلب منه إلى غير رجعة ، بعد أن دخله النصارى فخربوه وعاثوا فيه فسادا:

يا دارُ أينَ البيضُ والآرامُ أم أينَ جيرانٌ عَليَّ كرامُ
دارُ المحبِّ من المنازلِ آيةٌ حَيّا فلم يرجعْ إليهِ سلامُ
أَخرسنَ أم بَعُدَ المدىٰ فنسينهُ أم غالَ من كانَ المجيبُ حِمامُ
ومعي شهيدي أنني لَمْ أنسَهُم إنَّ السلوَّ عَلى المحبِّ حَرامُ[4]

ويبدو أن الشاعر لم يجد وسيلة لسلواه في مصابه وعزاه في نكبته إلا التوجه إلى الله متضرعاً، (فقال أبيات الفرج المشهورة)[5]:

يا مَن يرىٰ ما في الضميرِ ويسمعُ أنتَ المُعدُّ لكلِّ ما يتوقّعُ

---

(١) الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص١٩٢.

(٢) ديوانه: ص٣٥٤.

(٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن الحسين.. الإمام الحبر أبو القاسم ، وابو زيد السهيلي الأندلسي المالقي الحافظ صاحب المصنفات . استدعىٰ إلىٰ مراكش وحظى بها وولي قضاء الجماعة وحسنت سيرته أصله من قرية بوادي سهيل من كورة مالقة. ينظر: زاد المسافر : ص١٣٨ــ١٤٠. المطرب من أشعار أهل المغرب: ص٢٣٠ــ٢٣٩، أدباء مالقة: ص٢٥٢ــ٢٥٨، وفيات الأعيان: ٣/١٤٣. نكت الهميان في نُكت العميان: الصفدي، تحقيق: أحمد زكي بك، القاهرة، ١٩١١، ص١٨٧ــ ١٨٨، الاحاطة: ٣/٤٧٧ــ٤٨١، مختارات من الشعر العربي والأندلسي : ص٧٦ــ٧٧، نفح الطيب: ٥/٧٦ــ٧٧.

(٤) المُغرب في حلي المغرب: ١/٤٤٨، نُكت الهميان: ص١٨٨.وقد اعتمدنا رواية النكت.

(٥) الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: ١/١٤٦.

يـا مَـن يُزجـي للشـدائدِ كلـهـا يـا مَـن إليـهِ المُشـتكىٰ والمفـزعُ(١)

وتصل الفاجعة ذروتها عند ابن الجنان المُرسي إذ يفقد أباه فيرثيه، ويمزج هذا الرثاء العاطفي الحار، برثاء مسقط رأسه ومرتع صباه، مدينته مُرسية . هاك قوله:

ويـا لمُرسـيةَ الغـراءِ مـن بلـدٍ أضحـىٰ منـيراً وأمسـىٰ نـورُهُ خُسِـفا
ويا لجمالِها الأعلـىٰ لقـد وضعـت منـهُ مجـاورة التثليـبِ مُـا شـرفا
إذ كنتُ أشهدُ أطـرافَ النـهارِ بـهِ مَـع المصلّـي وليـلاً أشـهدُ الزُلفـا
جاورتُ منهُ جُمانـاً كـانَ مُجتمعـاً لبهجـةِ الديـنِ والدنيـا ومؤتلفـا(٢)

وربما أسودت الدنيا في عين الشاعر الأندلسي بعد سقوط مدنه. وتبدل أهلها، ومحي دينها، وهتك عفافها، ورافق ذلك مصائبه الاجتماعية واضطهاده الثقافي والأدبي، في زمن قل فيه الناصح الأمين، وندر فيه القائد الأسوة فعم الطغيان وكثرت الويلات، ويُحسن ابن الخطيب تأريخ هذا الأوضاع فيطلعنا على الأحداث من قرب ببصيرة وحكمة:

وبـانَ فـي الأندلـسِ الفسَـادُ وانتـثرتْ مـن ضعفِـها البـلادُ
وأخـذتْ أماتَـها النصـارىٰ وأصبـحَ النـاسُ بِـها حَيـارىٰ
تَراهُـمُ مِـن هولِـها سُـكارىٰ قَـد أشـعلَ الـروعُ بِـها الأفكـارا(٣)

وطالت المراثي اشبيلية كغيرها من المدن التي وقت تحت محاصرة النصارىٰ، ومن ثم في أيديهم ، فأبو هارون موسىٰ بن موسىٰ (المئة السابعة) يضع بين ايدينا نصاً شعرياً يتحدث فيها عن مصاب المسلمين في اشبيلية وشدة المحنة التي تدور عليهم. وهذا النص وإن بدأ بصرخات الاستغاثة والاستنجاد إلا أن (الروح السائدة فيه هي

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، دار المسيرة ــ بيروت ١٩٧٩: ٢٧١/٤.

(٢) ديوانه: ص ١٢١، والأبيات بتصرف.

(٣) شرح رقم الحلل في نظم الدول: ص ٣٠٢

الحزن واللوعة والبكاء بنكبة المسلمين في مدينتهم ، والاستسلام بقضاء الله وقدره فيها)[١]:

يا سائلي عن مصابِ المسلمينَ بِها أصغْ لتسمعَ أمراً يورثُ الصمما
لما تفرقتِ الأهواءُ وأضطرمتْ نارُ البغاةِ فقامتْ للردىٰ عَلما
يا حسرةَ الدينِ والدنيا لأندلسٍ مُهما استطالَ بِها التثليثُ وأجترما[٢]

أما أبو المطرف ابن عميرة المخزومي، فعلىٰ الرغم من أن شعره يمثل الاتجاه السلبي اليائس ، الذي لا يرى في المقاومة نفعاً ولا جدوىٰ[٣]، فإنه بقي يرصد القضية الأندلسية ويعبر عن ما حدث في الأندلس، وما حل بها ، يقول فيه د. محمد بن شريفة: (وتدلنا آثاره الشعرية والنثرية على عنصر مهم من عناصر شخصيته ألا وهو عاطفته الوطنية القوية، وقد اشتهر الأندلسيون علىٰ العموم بشعورهم الوطني ولذلك نجد باب الشعر الوطني من أغزر الأبواب في الأدب الأندلسي)[٤]، فإن كانت هذه الآثار تعنى بالبكاء على المدن، والحنين إلى المعاهد والديار والوقوف على الأطلال ، فهي ليست مثلبة عليه، أو منقصة في أدبه، فالشاعر يعبر عن عاطفته علىٰ وفق ما يراه مؤثرا في المتلقي، بحيث يشركه قدر الامكان في تجربته التي عاشها ويجعله يحس بها. وأما أن المخزومي قد فقد الثقة في المستقبل، واستولىٰ عليه اليأس ولم يعد ينظر إلىٰ الأفق بتفاؤل وأمل كما يرى الأستاذ الطرابيسي[٥]، فما ذلك إلا لفقده المكان ــ المدينة ــ الذي كان يمثل بالنسبة له الماضي والحاضر والمستقبل، فعاش الغربة وعانىٰ الحنين فبدأ يبكي ويتحسر ويتألم ، وما انتهىٰ ذاك البكاء المرير، والدمع المدرار طيلة حياته.

(١) الأدب الأندلسي: (د. منجد) ، ص٣٢٧.

(٢) البيان المغرب: ٣/٣٨٢ ــ ٣٨٥.

(٣) ينظر: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي: ص ١٦٠.

(٤) أبو المطرف بن عميرة ــ حياته وآثاره ــ ص ١٦٧.

(٥) ينظر: الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي: ص ١٦٣.

(خطاطة ترسم أثر المكان المفقود على الذات الشاعرة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها).

يقول ابو المطرف في شعر يبكي الرزء ببلنسية، وقد غلب عليه الشكوى والحنين، وتذكر تلك الربوع الجميلة التي كان معتادا على ارتيادها لقضاء أحلى الأوقات وأمتعها:

ألا أيُّها القلبُ المصرّحُ بالوجدِ ... أمالكَ من بادي الصبابةِ من بُدِّ؟
وهَل من سلوٍّ يُرتجىٰ لمتيّمٍ ... لَه لوعةُ الصادي وروعةُ ذي الصدِ
يحنُّ إلىٰ نجدٍ ، وهيهات حرّمت ... صروف الليالي أنْ يعودَ إلىٰ نجدِ
أمنْ بعدِ رزءٍ في بلنسيةٍ ثَوىٰ ... باحنائنا كالنارِ مضرمةَ الوقدِ
يُرجىٰ أناسٌ جنّةً في مصائبٍ ... تطاعنُ فيهم بالمثقّفةِ الملدِ
ألا ليتَ شعري هل لها من مطالعٍ ... مَعادٌ إلىٰ ما كانَ فيها من السعدِ
وهل أذنبَ الأبناءُ ذنبَ أبيهم ... فصاروا إلى الاخراجِ من جنةِ الخلدِ[1]

ويمضي في هذا البكاء الذي لا يتوقف، وهذه الظلمة التي لا تبدد:

ما بالُ دمعكَ لا ينـي مِدرارهُ ... أم لقلبكَ لا يقرُّ قرارهُ؟
ا للوعةٍ بينَ الضلوعِ لظاعنٍ ... سارتْ ركائبُهُ وشطّتْ دارُهُ[2]

(١) اختصار القدح المعلى: ص٤٨، نفح الطيب: ١/٣٠٥ـ٣٠٦.

(٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم: ص٢٠١، الروض المعطار: ص٩٩ـ١٠٠.

وفي هذا البكاء يكثر من ذكر الأماكن والأربع والأطلال، ويئنّ بأسىً مرير حينما يذكر العصور الماضية والذكريات الجميلة التي كانت تجمع الشمل. وتضم الأحباب في تلك الأماكن:

وعادَ قلبي من شرقِ أندلسٍ عيدُ أسىً فتّهُ وما فَتَرْ
فأينَ منّا منازلٌ عصفتْ ريحٌ عليها من العدا صَرْصَرْ
ودونَ شُقرٍ ودونَ زرقتِهِ أزرقُ يحكى قناةً أو أشقرْ[1]

فكيف تُمحىٰ الأيام من ذاكرته ؟ وكيف تُنسىٰ الأمسيات والليالي، وقد كانت من الجمال والروعة بمثل قوله:

ليالٍ بماءِ الوردِ ينضحُ ثوبُها وطيبُ هواءٍ فيه مسكٌ وعنبرُ
وبالجبلِ الأدنىٰ هناكَ خطىٰ لنا إلىٰ اللهو لا نكبوا ولا نتعثرُ
جَنابٌ بأعلاهِ بهارٌ ونرجسٌ فأبيضُ مفترّ الثنايا وأصفرُ[2]

وله قصائد أخرىٰ ينحو فيها هذا النحو[3]، في لغة شجية رقيقة، وأسلوب حزين يعبر عن مشاعره الباكية المفجعة الأليمة

وحتماً أن يدور ابن الابار في فلك الباكين على وطنهم والمتحسرين على فقده. وقد كان المستنجد الأول، والمستصرخ الأهم بين شعراء الأندلس عموماً. فإذا ما أحسّ بخسارته وضياعه راح يندبه ويبكيه بقصائد أرق من تلك التي رأيناها في شعر الاستنجاد ، وأعلىٰ عاطفة منها، كقوله:

وطّنْ علىٰ الدائبينِ: الدمعِ والشجنِ يا نادبَ الذاهبينِ: الأهلِ والوطنِ
وأسكنّ إلىٰ الصبرِ في المامِها نُوبًا أودتْ علىٰ عقبِ المسكونِ بالسكنِ
كزعزعِ الريحِ صكّ الدوحَ عاصفُها فلَمْ يَدعْ من جنتي فيهِ ولا غُصُنِ
ومكرةً أنا فيها قلتُ لا بطلٌ فَلا تخلني خَلياً من جوىٰ الحزنِ
هذا فؤادي كالبرقِ الخفوقِ أسىً وهذي أدمعي كالعارضِ الهتنِ

---

(١) الروض المعطار: ص٣٥٠، أبو المطرف بن عميرة ــ حياته وآثاره ــ :ص٣٣٢.

(٢) نفح الطيب: ٤/٩٣؛ ــ ٩٥؛.

(٣) ينظر: تحفة القادم: ص٢٠٩ــ٢١٣، اختصار القدح المعلىٰ: ص٤٤، الذيل والتكملة: ١/١/١٧٣، ينظر: ١/٢١٦ــ٢١٧.

براحتـي رايـةُ الأشـجانِ أحملُـها وإن غدا الجسمُ وهناً ليـسَ يحملنـي[1]

وهو كصديقه ـ المخزومي ـ ما فارقته صورة تلك الذكريات التي قضاها في بلنسية، فيبكي اندثارها، ويحن إليها، فتجري به الدموع ، وتزداد في نفسه مرارة الحزن:

كلمـا هبّتِ الصبـا ذكـرَ الشـو قَ ففـاضت عينـاه شـوقاً ووجـدا
يـا سـقىَ اللهُ للرّصافـةِ عَـهداً كنسـيمِ الصبـا يـرقُّ وَينـدىٰ
وجنانـاً فيـهِ أهيـمُ حنانـاً بيدَ أنّـي حُرمـتُ فيـهنَّ خُلـدا
مُستهلاً كـأدْمعي يـومَ ودعـ ـتُ ثراهـا النفّـاحَ مِسـكا ونّـدا
ليتَ شعري هل يَرجعُ الدهـرُ عيشـاً يشـهدُ الطيـبُ أنّـهُ كـانَ شَـهدا[2]

ويمضي على عادة الراثين الذين يدعون لقبورهم مرثييهم بالسقيا، وكأنه حضر جنازة بلده وشهد دفنها، وها هو يدعو له بلا رجعة، فقد أصبح مجرد أطلال تُندب . ومعاهد تُذكر:

بلنسيةُ يـا عذبـةَ المـاءِ والمُنـىٰ سُقيتِ وإنْ أُسـقيتِ صـوبَ الرواجـسِ
أُحبُّ وأقلـي منـكِ حـالاً وماضيـاً بمُوحشـةٍ موتـاً بعـهدِ الأوانـسِ
ومـن عجـبٍ أنَّ الديـارَ أواهـلُ وأندبُـها نـدبَ الطلـولِ الـدوارسِ[3]

بهذه الأنفاس الحزينة وثّق ابن الأبار مأساة مدينته، وأضاف عليها من مشاعره المتحسرة، المفرطة في الحزن والألم، فترك أبياته تحفة نفيسة تحكي مرارة الأيام وغدر الزمان.

وبهاتيك الأنفاس والمشاعر خلّد الرندي قصيدته الشهيرة ذائعة الصيت. تلك القصيدة التي سارت بها الركبان، وطار ذكرها في الأندلس وغيرها. فهتكت حجب الزمن، وفتقت صفحات التاريخ لتبقى شاهداً أدبياً وتاريخياً ونفسياً لما حدث في تلك الربوع من مرارة الأحداث، وضياع البلدان، وتبدل الرجال. وضيم الحق، وعلو الباطل.

---

(١) ديوانه: ص ٣٢٠.
(٢) م. ن. : ص ١٧٥.
(٣) م. ن. : ص ٤٠٠، الرواجس: مفردها رجس ، وهو الفتر.

وهي ـ القصيدة ـ تحريض وندب، وجهاد، وبكاء ورثاء، وعزاء وتسلية وتصبر، وتحسر وتأسف.. وهي (بجوها العام مغلقة بنبرة حزن كئيبة. ونفسة اتعاظ واعتبار، تبكي أفول نجم الأندلس وانسحاق شموخها وغياب علومها ومنابرها، وخلوها من الإسلام. ولا ينسى الشاعر أن يتأسى بالماضي فيضرب الأمثال والشواهد من غير ارهاق أو اكتظاظ يذهبان بسلاستها وروعتها)[1].

وقد بلغت الشهرة بالقصيدة مبلغاً عظيماً جعل المقري يشكّ في أنها زيدت عليها من أناس شهدوا سقوط غرناطة وبسطة، أي بعد وفاة شاعرها الرندي بقرون[2]. وما هذه الزيادات التي طالت القصيدة الأم إلا لاعجاب الناس بها، وكثرة تداولها بينهم، ومعرفتهم بها وبما فيها. وهل كتب الخلود لمعلقة عمرو بن كلثوم إلا بالزيادات التي انهال عليها باحثو الأدب الجاهلي ودارسوه؟! وهل تعقّبت الزيادة الأبيات الأصل ما لم تشتهر هذه الأبيات على كل لسان، وفي كل زمان ومكان؟!.

وحسبنا هنا أن نشير إلى لوحة واحدة هي بكاؤه على المدن، ورثاؤه لها، تاركين اللوحات الأخرى لباحثين كُثر[3]، اعتنوا بها وأدقوا في معانيها فخرجوها على وفق ما أراد شاعرها، وما ابتغاه من نظمها. هاك قوله بندب ضياع مدن الأندلس التي وقعت بيد الأعداء:

فاسألْ بلنسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ ... وأينَ شاطبةٌ أم أينَ جيّانُ؟
وأينَ قرطبةٌ دارُ العلومِ فكم ... من عالمٍ قد سَما فيها لَهُ شأنُ
وأينَ حمصُ وما تحويهِ من نُزهٍ ... ونهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ
قواعدٌ كُنّ أركانَ البلادِ فما ... عسى البقاءُ إذ لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراقِ الألفِ هيمانُ

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ص٣٢٢.

(٢) ينظر: نفح الطيب: ٤/٤٨٨.

(٣) ينظر: دراسات أندلسية في الادب والتأريخ والفلسفة: ص٣٠٧ـ٣٦٠، تأريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والامارات: ص٣٨٨، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: د. محمد رضوان الداية. دمشق ط١، ١٩٧٦، ص٩٠ـ٩٣، الأدب الأندلسي في عهد الموحدين: ص١٤٢، ملامح الشعر الاندلسي: ص٣٠٩ـ ٣١٤، الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص٣٢٢ـ٣٢٦، الأدب الأندلسي: (د. منجد)، ص٢١٦ـ٢٢٠، مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١٠٩ـ١١٠، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: ١/٢٢٢ـ٢٢٣، الرثاء في الشعر الأندلسي: ص١٨٧ـ ١٨٩.

علـى ديـارٍ مـن الإسـلامِ خاليــةٌ قـد أسـلمت ولـها بـالكفرِ عِمـرانُ[1]

فقد غدت هذه المدن (ممتحنة بائسة، تطوف عبرها مواكب الكفر والدمار، وتمسح جنباتها ظلال الأسى، فتنعدم الألوان وتتحول إلى عتمة كئيبة تبكي شبابها وترثي أيامها الزاهرة المورقة)[2]:

حيثُ المساجدُ قد صارتْ كنـائسَ مـا فيـهنَّ إلا نواقيـسٌ وصُلبـانُ
حيثُ المحاريبُ تبكي وهـي جـامدةٌ حتّى المنـابرُ تَرثـي وهـي عيـدانُ[3]

ولئن لم يعشْ حازم القرطاجني إلا بداية المأساة في شرقي الأندلس إذ غادرها في حدود سنة ٦٣٧هـ[4] ؛ إلا انه كان يعيش بخياله وأدواته ـ الشعر ـ كل ما يتعرض له ذلك الشرق من نكبات وما يقاسيه من محن. وما أن يسمع بما يحل في مراتع شبابه من خراب وعدوان، حتى تهيج به الذكرى فيعرب عن حنينه وتوقه لتلك المراتع والجنان، ولا يخلو هذا الحنين من بكاء مرير، وأسىً عميق[5].

وإذا وصلنا إلى نهاية بقاء المسلمين في الأندلس، فلم تكن أفضل حالا من العصور التي سبقتها، إذ لم تبق إلا غرناطة وما يعود إليها سياسياً وإدارياً. وفي هذه النهاية المأساوية دبج الشعراء قصائد رقيقة تحكي تلك الحضارة التي تغيرت وتلك المعالم الدينية –من مساجد ودور علم ومدارس– التي تبدلت حيث تحولت الجوامع إلى كنائس، ورُفع صوت نواقيسها بدل الأذان. وقد عبّر ابن المرابط (من شعراء بني الأحمر) بلوعة وأسىً عن حزنه لما أصاب بلاده، وعن ألمه لعدم إنجاد أهلها من قبل أخوانهم المسلمين بالمغرب، يقول:

كـم جـامعٍ فيـها أُعيدَ كنيسـةً فـأهلكَ عليـه أسـىً لا تتجلـدِ
القَـسُّ والنـاقوسُ فـوقَ منـارهِ والخمـرُ والخنـزيرُ وسـطَ المسـجدِ

(١) مجموع شعره: ص٦٣٧.
(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ص٣٢٤.
(٣) مجموع شعره: ص٦٣٧.
(٤) ديوانه: مقدمة المحقق، ج.
(٥) ينظر: ديوانه: ص٥ ـ ١١٤، ص ١١٥، قصائد ومقطعات: ص٣٢، ص٢٠٣، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

كـم مـن أسـيرٍ عندهـم وأسـيرةٍ فكلاهمـا يبغـي الفـداءَ فمـا فُـدي[1]

ويحدثنا أبو العباس الدقون (ت٩٢١هـ) عن أحوال غرناطـة فـي حصارهـا وسقوطها . فها هو أولاً يصف الجيش الكاثوليكي الغازي، قوة وعُدة:

سطا بجيشٍ كموجِ البحـرِ فـي عـددٍ نَعَمْ ، وفـي عـددٍ مـن رهـطِ أبطـالِ
مؤيـداً باجتمـاعِ المصـرِ يتبعُـهُ شـرُّ الخلائـقِ مسـروراً باقبـالِ[2]

ويبكي ابن الدقون غرناطة مشيراً إلىٰ تلك الأخطار التي تحدق بها ، ويدعو أهل فـاس للأتعاظ بما جرىٰ في غير غرناطة من مدن الأندلس:

هـذا النذيـرُ جـهاراً جـاءَ ينذر هنا والأذنُ فـي صممٍ عَـن قيـلٍ أو قـالِ
ونحنُ فـي غفلـةٍ عمـا يـرادُ بنـا نمشي علىٰ مهلـة مـن طـولِ امـهالِ
يا أهلَ فاسٍ أما في الغـيرِ موعظـةٌ إنَّ السـعيدَ لموعـظٌ بأمثـالِ

وتنحو القصيدة منحىً آخر، إذ يدعو ابن الدقون إلىٰ ترك الاندلس التي صـارت كلـها تحت قبضة الأسبان من جهة، ويستنجد بملوك المغرب والمسلمين هنـاك مـن جهـة أخرىٰ:

كيفَ الحياةُ إذا الحيـاتُ قـد لَفحـتْ عَلـىٰ السـواحلِ أوهمَّـتْ بإرسـالِ
ولا نرومُ فـي أمـانِ الـروم منزلـةً خوفـاً علـىٰ الديـنِ أو بُعـداً لإنـزالِ

(ولا يعدّ موقف ابن الدقون انهزامياً كما هو الأمر مع ابن العسال من قبل؛ لأن الفـترة التي عاشها ابن الدقون مختلفة تماماً عن الفترة التي كان فيها الأخر والتي كانت تتطلب آنذاك نضالاً دؤوباً لاستعادة طليطلة واسطة قلادة الأندلس ونقطة دائرتها)[3]. لقد احتلت الأندلس كيان الشاعر ومشاعره ، فهو يدعو لمغادرتها على أن يراها بمثل هذا المصـير فـ (هذه الروح المؤمنة بقضيتها، والتي كان يعبر عنها الشعراء لم تنته بنهاية سـقوط "غرناطة" ولم يكن الأندلسيون ليستسلموا بسهولة ، في أرضهم ومعالم حضارتهم .. إنهم

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٤١١/٧.
(٢) أزهار الرياض: ١٠٤/١ وما بعدها.
(٣) مدخل إلى الأدب الأندلسي: ص١١١.

أبدوا بسالة وشجاعة من أجل الذود عن مقدساتهم، وعن كيان وجودهم. وقد استرخصوا في ذلك كل غال وثمين)[1].

أما عن القرن التاسع الهجري فكان مرحلة حاسمة، بنهايته كانت جميع الحصون والقلاع والمدن في قبضة النصارى، فبكاها شعراء هذا القرن صادقين مخلصين. ولنا في دراسة د. قاسم الحسيني مثالاً حياً على هذا البكاء، وشاهداً شاخصاً على شعر ذلك القرن[2].

ويطيب لنا أن نختم كلامنا عن المدن الأندلسية ورثائها من قبل الشعراء، بالإشارة إلى تلك المرثية المجهولة الهوية والتي يجمل فيها الشاعر أسباب سقوط المدن، بعد أن يبكيها بكاء حارا، ويتحسر لما حل بها وبأهلها بعاطفة قل أن نجد مثلها. وقد قسم د. الطاهر أحمد مكي[3] القصيدة إلى خمسة محاور:

المحور	الغرض أو الاتجاه من المحور	عدد الأبيات
الأول	بكاء رُندة والتحسر عليها، والتغيرات الدينية والاجتماعية والسياسية التي طرأت عليها بعد سقوطها.	٦٣ بيتا
الثاني	بكاء مدن أخرى كمالقة الحسناء وما حولها كبلّش والمنكب وبسطة ووادي آش، ويتضمن الحديث عن غرناطة وجمالها ووصف مفاتنها.	٢٢ بيتا
الثالث	شرح أسباب النكبة التي هي نتائج لمقدمات سبقت وهذا العنصر ينفرد صاحب القصيدة عن الشعراء السابقين فهم لم يذكروا الأسباب بل؛ اكتفوا بالبكاء والتحسر.	١٩ بيتا
الرابع	الحث على الجهاد ودعوة المسلمين للقيام به. ويتضمن وصف الحالة التي آل إليها الدين الإسلامي، وسوء العاقبة لمن لم يلب الدعوة لجهاد الأعداء وانقاذ المسلمين شرقا وغربا.	٢٦ بيتا
الخامس	الدعاء من أجل اغاثة المسلمين، ومن أجل تشتيت شمل النصارى.	١٥ بيتا

(١) الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي: ص١٥٥.

(٢) ينظر: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري: ص١٩٢ــ٢٠١.

(٣) ينظر: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة: ص٣٧٦ــ٣٨٢.

هذي كانت الخطوط العامة للقصيدة، ولا يخفىٰ علىٰ القارئ كم استأثر رثاء المدن بالاجزاء الأولىٰ، وبأغلب الأبيات وأما عن الخطوط الدقيقة التفصيلية فالشاعر يبدأ الحديث عن رُندة، وعن أهلها وما حدث لها. وهو بصيغة الاستفهام الانكاري يتساءل في حيرة وشك أحدث لرندة ما حدث حقا؟ أهدمت منازلها؟ واستبيحت مبانيها؟ وأظلمت أرجاؤها؟ وتبدلت معالمها ومنازلها؟ فلنسمع قوله:

أحقاً خبا من جوّ رُندةَ نورُها وقد كُسفتْ بعدَ الشموسِ بدورُها
وقد أظلمتْ أرجاؤها وتزلزلتْ منازلُها ذاتِ العُلا وقصورُها
أحقاً خليليّ أن رُندةَ أقفرتْ وأزعجَ عنها أهلُها وعشيرُها
وهُدّت مبانيها وثُلّت عروشُها ودارتْ علىٰ قطبِ التفرقِ دورُها

ذلك الاستفهام جلب كل تلك الحسرة والظلمة للشاعر الذي بات غير مصدق لما حدث لمدينة كانت يوماً ما من أمنع الحصون في الأندلس، وأكثرها قوةً وبأساً:

وكانتْ عُقاباً لا ينالُ مطارُها ومعقلَ عزٍّ، زاحمَ النسرَ صُورُها
هوتْ رُندةُ الغراءُ، ثُمّ حصونُها وأنظارُها شُنعاءُ. عزّ نظيرُها[1]

إن تلك الحصون المنيعة ، وتلك القوة المخيفة فقدت إسلامها وإيمانها التي كانت تستمد منه القوة والمنعة والبأس، فلا ريب أنها بهذا الفقد خسرت كل شيء. فما أن دامت النصارىٰ حتىٰ فرقوا كلمة أهلها، وبددوا أحلامهم، وهاجموا مساجدهم وقلبوها كنائس:

تسلّمها حزبُ الصليبِ وقادها وكانت شروداً لا يقادُ نفورُها
وقد ذهبتْ أديانُها ونفوسُها وقد دُثرتْ تحتَ السباءِ دثورُها
فبادَ بها الإسلام حتىٰ تقطّعتْ مناسبُها. واستأصلَ الحقَّ زورُها
وأصبحتِ الصلبانُ قد عُبدت بها تماثيلُها دونَ الإلهِ وصورُها
لقرعِ النواقيسِ اعتلىٰ بمنارِها كرانةُ أصواتٍ يروعُ صريرُها
فيا ساكني تلكَ الديارَ كريمةً سقىٰ عهدَكم مزنٌ يصوبُ نميرُها

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص٣٤٣.

وتستمر هذه العاطفة الحزينة، وهذه النفس الملتاعة تقص علينا ما حدث لإسلام مالقة وللمسلمين فيها. وتتفاقم هذه العاطفة، ويزداد ذلك العويل كلما وصل الشاعر إلى أماكن العبادة وما حل فيها. فإن ما حل لم يكن أن يُنسى على مر الأزمان، وتعاقب السنين:

فوا حسرتا كم من مساجدَ حولتْ وكانتْ إلى البيتِ الحرام شطورُها
وواأسفاً كم من صوامعَ أوحشتْ وقد كانَ معتادُ الآذانِ يزورُها
فمحرابُها يشكو لمنبرها الجوى وآياتُها تشكو الفراقَ وسورُها[1]

ويستمر الشاعر في الحديث عن هذه الفاجعة إلى نهاية المحور الأول الذي يخص رندة، مستخدماً هذا الاستفهام الذي يخرج للتهويل والتعظيم. ليصف فداحة الموقف، وكبير الفقد والمصاب.

في المحور الثاني؛ يبكي الشاعر على مالقة وما حولها من مدن، وكيف تغيرت بها الأحوال وعصفت بها الأيام. ويتحدث عن هذه المدن وقد خلت من أهلها (المسلمين)، فلم يبق فيها إلا المشركين، يعيثون فيها فساداً، وإجراماً:

فمالقةُ الحسناءُ ثكلى أسيفةٌ قد استفرغتْ ذبحاً وقتلاً جحورُها
وجُزّتْ نواصيها وشُلّتْ يمينُها وبُدّل بالويلِ المبينِ سرورُها
وقد كانت الغربيةُ الجننَ التي تقيها فأضحى جنةَ الحربِ سورُها
وبلّشُ قُطّتْ رجلُها بيمينِها ومن سريانِ الداءِ بانَ قطورُها
وضّحتْ على تلكَ الثنياتِ حجرها فأقفرَ مغناها وطاشتْ حجورُها
وباللهِ إن جئتَ المنكبَ فاعتبرْ فقد خفَّ ناديها وجفَّ نظيرُها[2]

ومن ثم يأتي الحديث عن غرناطة وهو يفاضلها على الأمكنة كلها فلا يوجد مكان يضاهيها لا في العراقين ولا في عموم البلاد، حتى وأن غلبها الحزن، وأكتنفها الأسى وكل ما فيها مأتم وعزاء. ومن ثم يتحدث عن المرية بحزن كبير، كيف لا وهي مدينته ومجمع ذكرياته، ومحل أنسه:

وما أنسَ لا أنسَ المريّةَ إنها قتيلةُ أوجالٍ أُزيلَ عذارُها

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص٣٤٤.

(٢) م.ن.: ص٣٤٦.

وهي منازل آبائه، وأول أوطانها التي عرفها وأحبها:

منازلُ آبائي الكرامِ ومنشئ وأولُ أوطانٍ غذاني تميزُها
وأقروا عليها سلامي تحيةً تجدّدها آصالُها وبكورُها[1]

بعد هذا السلام يتجه الشاعر نحو مدينته ليتحدث عن فاجعتها، وفاجعة أهلها. وهو في هذا الحديث لا يبتعد كثيرا عن ما قدمنا فيه القول في بكائه لرندة وبلش والمنكب ومالقة وغرناطة. فالقصيدة تسير على وتيرة واحدة من العاطفة، وشعور واحد من البكاء، كما أنها لا تبعد عن التركيز على المعاني الدينية وعلى معالم الإسلام ومبادئه التي استبيحت، وكثر فيها الطعن والتدمير والتغيير.

ويطلب الشاعر من أهل الأندلس بعد هذه المصائب والنكبات التي حلت بهم وبمدنهم التوبة والأوبة إلى الله – عز وجل – بعد أن شرح لهم كم بلغوا من الاسفاف والتبذل والتهكم بشعائر الله وحرماته حتى أوردهم – سبحانه – الموارد، وسقاهم كأس العذاب في الدنيا قبل الآخرة. وعلى الرغم من كل هذه الويلات والأزمات التي وقعوا فيها، وعلى الرغم من كل هذه الانتهاكات التي اجترحوا، إلا ان الله – سبحانه – العفو الغفور فلابد من رجعة صادقة، وتوبة نصوحا. ومن ثم استغفار وجهاد ودعوة لاسترداد ما استباحه العدو، فإنه مهما قوي فهو ضعيف، ومهما عدل فإنه ظالم. ومهما طغى وامتلك ودمّر فهو صاحب العاقبة السيئة، والمصير المشؤوم. ولا ينسى الشاعر أن يخص أهل أرضه بالدعاء، راجياً من الله – عز وجل-أن يردهم إلى دينهم. ويمكنهم من عدوهم ، حتى يسترجعوا البلاد، ويقيموا معالم الحق. بهذه اللوحات وفّق الشاعر كما وفّق غيره من شعراء الأندلس في الوقوف على تلك المدن والممالك التي انهارت وخربت فخرجوا منها بقصائد نفيسة وظاهرة جديدة (استطاع الأندلسيون أن يضيفوها إلى أدبنا العربي غرضاً جديداً، وان يشدوها إلى قيثارة الشعر وتراً طريفاً عزفوا عليه حيناً من الزمان ألحانهم المؤثرة، وأنغامهم الشجية)[2].

(١) قصيدة رائعة في رثاء الأندلس: ص ٣٤٧.

(٢) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي: ص٣٢٤.

المبحث الرابع : التحول المكاني.

(إن نظامنا المكاني تتحدد ملامحه وطبيعته من خلال تدرج يكمل حركة الشخص ونموه ووعيه)[1]. وأن هذا التدرج لا يمكن أن يكون بمنأىً عن صلات وعلاقات تحدد مسار الشخصية وتفرض عليها فروضات تعود إلى واقع معاش، أو متبدل (فثمة علامات اجتماعية تحدد البقاء في مكان ما، وثمة أنماط من المعاناة النفسية تفرض الرحيل عنه، وثمة صيغ تعبيرية تكشف عن جوانب لا حصر لها من الأحداث التاريخية التي تستدعي "التحول المكاني". أو التعامل مع قوانين الحياة السائدة ـ ردود فعل استثنائية تصون كرامة الإنسان)[2].

وبناءً على هذه العلاقات والأنماط نشأ عنواننا (التحول المكاني) وأثره عند الشاعر الأندلسي بعد أن كان لهذا التحول أثراً بيناً عند الشاعر الجاهلي[3]، والشاعر الأموي[4]، والشاعر العباسي[5]. وكان لكل تحول ظروفه الذي يستدعيها طموح الشاعر، أو مواقفه الذاتية الخاصة من الحياة والمجتمع، أو فقده لعلاقات المودة والصفاء بينه وبين أبناء جلدته إذ شرختها صروف الدهر، وتبدلت إلى نوع من المعاداة، بل؛ والطرد أحياناً. فيعاني الشاعر تحولاً مفروضاً، (فالتحول المكاني موقف مضاد لفكرة البقاء على الضيم الذي يعاني منه الفرد أو الجماعة على أرض ما)[6]. فيا تُرىً كيف عاش الشاعر الأندلسي هذا التحول بكل أبعاده وأسبابه؟ وكيف كان الموطن الجديد ـ واقعاً وطموحاً ـ؟

أبو الصلت الداني، شاعر عاش التحول المكاني، إذ يقال أنه عاش عشرين سنة في الأندلس ومثلها في مصر، ومثلها في تونس[7]. والناظر في شعره ليرىٰ ذلك التحول

---

(١) حواريات المكان: ادوارد هال ، ت : طاهر عبد مسلم ، مجلة الثقافة الاجنبية ، بغداد ، ع٣-٤، ١٩٩٧ : ص٣٩.

(٢) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٢٣.

(٣) ينظر: البناء الفني في ديوان الهذليين : ص١٥٦ـ١٥٧، المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص٢٣٥ـ٢٣٨.

(٤) ينظر: الاغتراب في الشعر العباسي: ص٨٤.

(٥) ينظر: م. ن: ص٩١.

(٦) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ٢٢٤.

(٧) التكملة: ٢٠٣/١، نفح الطيب: ٣٠٨/٢، ديوانه: (مقدمة المحقق) ، ص١٣.

بوصفه الأرض التي انتمىٰ إليها ومدح أصحابها وأرباب النعمة فيها[1]، فهل كانت أوصافه الكثر ، وتفننه في تلك الأوصاف تعني تحولاً مكانياً محمودا صدرت عن ذات راضية هانئة؟ وهل هي ــ الأوصاف ــ قيلت من دواعي المواطنة الحقيقية للمكان الجديد بكل تداعياته وفرضياته؟

إن شاعرنا الداني بوصفه المكان الجديد ، ولا سيما المظاهر الطبيعية التي توجد في هذا المكان، إنما يهرب من واقع مقيت، ومكان قاسٍ مؤلم. أسهمت في قساوته عوامل الغربة الدائمة، وأسباب السفر الطويل، وتنطعه على أبواب الممدوحين يستجدي عطاءهم وهباتهم. ولذا؛ ما أن حُبس أو أُعتقل، أو هجا أو رثىٰ حتىٰ وجد الفرصة سانحة للتعبير عن كنه المشاعر التي فرضها ذلك المكان ــ المتحول ــ والذي أبقى الذات في صراع نفسي اجتماعي ثقافي، ما لبثت أن تصرح عن مقتها له بدلالات مبطنة، وتوجسها من مخاطره بكلمات وأغراض مؤولة . فهو ما أن حبس ــ في مصر ــ حتىٰ راح يفخر بنفسه ويسمها بأنها محسودة ، ممنوعة أن تُعطى مكانتها الحقيقية، أو أن تنال منزلتها التي يجب أن تنال. يقول:

يا ربّ ذي حسدٍ قد زدتُهُ كمداً ... إذ رامَ ينقصُ من قدري فما نَقصا
إني رخصتُ ولم أنفقْ فلا عجبَ ... للفضلِ في زمنِ النقصانِ إن رخصا
وإن حُبستُ فخيرُ الطيرِ محتبَسٌ ... متىٰ رأيتَ حداةً أودعَ القفصا؟!![2]

وهو ما أن رثىٰ ــ أمَّه ــ حتىٰ وعظ بترك الخلان ، والتجافي عن الاصدقاء ، فهم ما بين حاسدٍ وحاقد . وما هذه النظرة التشاؤمية التي نراها في هذي الأبيات. إلا أثر ذلك التحول المكاني، ولعنته التي أفقدت الشاعر ثقته بالآخرين، مهما كانت صلتهم به:

ولم يبقَ في الباقينَ حافظِ خُلةٍ ... فعشْ واحداً ما عشتَ تنجُ وتسلمِ
فلستَ ترىٰ إلا صديقاً لمؤسرٍ ... حسوداً لمجدودٍ عدوّاً لمعدمِ
وكنتُ إذ استبدلتُ خلاً بغيرهِ ... كمستبدلٍ من ذئبِ قفرٍ بأرقمِ
فجانبْهُم ما اسطعتَ وأقبلْ نَصيحتي ... ومن لم يطعْ يوماً أخَ النصحِ يندمِ[3]

---

(١) ينظر: ديوانه: ص٥٥، ص٦٠، ص٦٩، ص٧٥، ص٨٩، ص٩٣، ص٩٨.

(٢) ديوانه: ص١١٠.

(٣) م. ن: ص١٤٣.

وتخرج مثل هذه النظرة البائسة اليائسة إلى حدود الدنيا بأجمعها، فيصفها أنها ليست دار الحر، أو مبتغاً لصفو عيش، بل؛ هي أساس كل ملمة وأصل كل دنية. يقول وقت أعتقل بمصر:

متى صفتْ الدنيا لحرٍ فابتغىٰ ... بها صفوَ عيشٍ أو خلوي من الحزن
وهل هي إلا دارُ كلّ ملمةٍ ... امضَ لا حشاءِ الكرامِ من الطعن
وإن هي لاتتْ مرةً لكَ فاْخشّها ... فإن أشدَّ الطعنِ طعنُ القنا اللدنِ[1]

وعلى هذه الشاكلة يكون الداني ممن قست عليهم الحياة، وحاربهم المكان أينما ذهبوا ، فعاشوا في ضنكه، ثم تمردوا عليه.

ويشهد ابن صاحب الصلاة سمات التحول المكاني ، وإن لم يغادر مكانه. فما أن فارقه الوالي، والأمير في غرناطة إلى اشبيلية فاتحاً ومحرراً حتى أصبح المكان الذي عهده موحشاً، والمنزل الذي كان ينعم بأفراحه وسرائره مقفراً. يقول مرتجلاً وقد مر عليه فذكر حسن المعاهد، والتأنس بتلك المشاهد :

عهدناكَ يا ذا المنزلِ الرحبَ منزلاً ... لسيّدنا بل افضلُ العصرِ أجمعا
تحطّ بكَ الآمالُ من كلّ جانب ... ونشربُ فيكَ الأنسَ مثنىٰ ومربعا
ويحضرك الافضالُ مدّةَ يومنا ... فللّهِ ذاكَ اليومُ مرأىً ومسمعا
فها أنتَ هذا اليومُ أوحشَ منزلٍ ... رأيناكَ بيداءَ وقفراً وبلقعا[2]

ولنا في تجربة ابن جبير مواعظ وحكم أخذت من الأمكنة التي زارها ردحا من الزمن ، وعاش في أهلها وبين ظهرانيهم ــ مودة أو عداءً ــ مدة ذلك الروح. فإذا هو مر بسُبتة بكىٰ زوجه، واستذكر سالف أيامه ، فقد أثار المكان شجناً غابراً، واحزاناً دفينة ما لبث أن صرّح عنها بقوله:

بسُبتة لي سكنٌ في الثرىٰ ... وخلٌّ كريمٌ إليها أتىٰ
فلو أستطيعُ ركبتُ الهوىٰ ... فزرتُ بها الحيَّ والميتا[3]

---

(١) ديوانه: ص ١٥٣.

(٢) تأريخ المن بالإمامة: ص٣١٠.

(٣) شعر ابن جبير : ص٣٣.

وكم كانت التجربة مريرة إذا ما قُيست بعلاقات ابن جبير مع من سكن بقربهم، أو حظي بمودتهم، او أراد الزمان الغادر أن يكونوا له خلاً، وصحباً:

صبرتُ علىٰ غــدرِ الزمــانِ وحقــدِهِ وشــابَ لــي السـمَّ الزُّعــافُ بشــهدِهِ
وجرَّبتُ إخــوانَ الزمــانِ فلــم أجــدْ صديقاً جميــلَ الغيــبِ فــي حــالِ بعــدِهِ
وكــم صــاحبٍ عاشــرتُهُ وألفتــــُهُ فما دامَ لي يومــــاً علــىٰ حُســنِ عــهدِهِ

وعلىٰ الرغم من مرارة الأبيات ، وشدة المعاناة التي بدت على صاحبها لمعاشرته أولئك الأصحاب المتغيرين بتغير المكان وتحوله، إلا أن ابن جبير لم يكن كالداني تشاؤما ، إذ قرر هذا الأخير ترك الناس جميعاً، وأن يعيش الإنسان بمفرده، متجافيا عن الآخريــن ، مبتعداً عن آفات قلوبهم من حسد وحقد وغيظ وكره. فابن جبير يعرف العـرة. ويصـون حقوق من حفظ لهم المودة، أو بادله المحبة، مؤمناً بأن الحظ هو الذي يكتب للفتى شقاءً أو سعادة، وما الخلان والزمن والمكان إلا أدوات تزيد من ذلك الحظ أو تنقصه :

فكُن ذا اقتصــادٍ فــي أمــوركِ كلِّــها فأحســنُ أحــوالِ الفتــىٰ حســنُ قصــدِهِ
وما يُحــرمُ الإنســانُ رزقــاً لعجــزهِ كمــا لا ينــالُ الــرزقَ يومــــاً بكــدِّهِ
حظوظُ الفتىٰ مـــن شــقوةٍ وســعادةٍ جــرت بقضـــاءٍ لا ســـبيلَ لـــردِّهِ[1]

ويبرز هذا الشقاء ، وتظر هذه اللوعة عندما يجد الشاعر في الأماكن الحجازيــة التي زارها أكثر من مرة متنفساً لهمومه، ومهرباً من آهاته. أو يُنكر أحد ما فــي تــلك الأماكن من روحانية ربانية؟ أو ما يسري منها من نفخات إيمانية تمــر علــى القلــب فتمحي منه ما تعلق بأدران الدنيا وويلاتها؟ يقول عندما ما حج قبر النبي ـ صلــى الله عليه وسلم ـ مهنئاً، مباركاً إذ حطّت عن النفس أوزارها، وأن السعادة مضمونة بذلــك الحج، وبرؤية ذاك المكان وأهله:

هنيئــاً لمــن حــجَّ بيــتَ الـــهدىٰ وحـــطَّ عـــن النفــسِ أوزارهـــــا
وإنَّ الســـــعادةَ مضمونـــــــةٌ لمـــن حـــجَّ طيبـــةَ أو زارهــــا[2]

(١) شعر ابن جبير: ص ٤٠.

(٢) م. ن: ص ٦٥، وينظر: ص٤١، ص ٥٧ـ٦٠، ص٦٣.

وعلى مثل هذا الجناس التام، المتفق في الصورة المحدود في حُلى الشعر[1]. يقول في فضل زيارة أرض الحجاز، وبلوغ قبر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والطواف حوله:

إذا بلغَ المرءُ أرضَ الحجازِ فقدْ نالَ أفضلَ ما أمّلَهْ
وإن زارَ قبرَ نبيِّ الهدىٰ فقدْ أكملَ اللهُ ما أمّلَهْ[2]

وما إن تحركت الرحلة نحو الحجاز وأرض المدينة، حتى ثارت في نفس ابن جبير عواطف الحنين، وأدركت روحه الهائمة بحب تلك الديار حلاوة التوجه نحو تلك الأراضي، وعذوبة لقاء أهلها. يقول وهو لا يتردد في ذكر الأمكنة التي يألف رؤيتها، ويدفع به الشوق للسفر إليها:

أقولُ وقد دعَىٰ للخيرِ داعٍ حننتُ لَهُ حنينَ المستهامِ
حرامٌ أن يلذّ لي اغتماضٌ ولم ارحلْ إلىٰ البيتِ الحرامِ
ولا طافتْ بي الآمالُ إنْ لم أطفْ ما بينَ زمزمٍ والمقامِ
ولا طابتْ حياةٌ لي إذا لم أزرْ في طيبةَ خيرَ الأنامِ[3]

ولابن جبير قصيدتان في مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي[4] وهاتان القصيدتان طويلتا النفس موازنةً مع شعره الذي تغلب عليه المقطّعات. وهذا المديح لا يخلو من حيث التحول المكاني وفرضياته على الشاعر من أمرين:

١ ـ إن ابن جبير الشاعر رأى في السلطان القائد ـ رحمه الله ـ الشخصية القيادية الحقة التي فقدها في مكانه الأول (غرناطة).

٢ ـ إن ابن جبير في مكان جديد، يفرض عليه التعايش مع أهله والانخراط في أحداثهم. وعلّ قضية بيت المقدس، وجهاد الأيوبي والمسلمين كانت من أهم تلك القضايا آنذاك.

---

(١) ينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر ـ بغداد، ١٩٨٠، ص٢٧٢.

(٢) شعر ابن جبير: ص٨٣.

(٣) م. ن: ص٩٣، وينظر: ص٩٥ـ ص١٠٤.

(٤) ينظر: م. ن: ص ٤٦ـ٥١، ص٨٧ـ٩٢.

وحتىٰ في وقت الافراح، وزمن المناسبات السعيدة يفرض المكان الجديد حزناً على ابن جبير وغربة تجعله يذرف الدمع ألماً وكمداً في وقت كان يجب أن يذرفه سعادة وفرحاً، يقول وقد شهد العيد في أرض مصر:

شهدنا صلاةَ العيدِ في أرضِ غُربةٍ بأحوازِ مصرَ والأحبةُ قد بانوا
فقلتُ لخلّي في النوىٰ جُدْ بدمعِ فليسَ لنا إلا المدامعَ قُربانُ[1]

(وما كلّ بيضاء شحمة) كما يقول المثل؛ فليست كل تجارب التحول المكاني هي غربة وشقاء وبؤس وجحيم، بل؛ يحتمل أن تكون تجاربا ذا بهجة وحب وسرور وطرب. فهذا ابن خروف القرطبي (من أهل المائة السابعة)[2] الذي رحل إلى المشرق ، فطبق ذكره هنالك الآفاق. وامتلأت بمحاسنه مسامع الشام والعراق، واستقر بحلب آخر امره يحدثنا عن تجربته في التحول المكاني الذي عاشه فبرى دمشق وكأنها جنة الحسن، وأن ايامه فيها كانت على مستوى عالٍ من السرور والسعادة والمحبة. إذ لا منغصاً . ولا مراقباً، أو معيباً. هاك قوله:

أما دمشقُ فجنّةٌ يبني بها الوطنَ الغريبْ
للهِ أيامُ السبو تِ بها ومنظرُها العجيبْ
انظرْ بعينكَ هل تَرىٰ إلا مُحباً أو حبيبْ
كلٌّ يبلّغُ نفسَه ما تشتهي مرحاً وطيبْ
في حيثُ لا داعٍ هنا كَ سِوىٰ السرورَ ولا مجيبْ

(١) شعر ابن جبير: ص ٩٤. واعتقد جازماً ــ إن شاء الله ــ أني لست بحاجة لإعادة الحديث عن شعر أبي حيان وتحوله المكاني ، أو عن محنة ابن الخطيب ومقتله خارج ديار أهله ومنازلهم، ولا للحديث عن تجارب الشعر المواكب للحروب وما تعنيه أماكنها تحولاً وتغيراً بالنسبة للشعراء الذين أكثروا الشعر في تلك المعارك التي خاضها الأندلسيون كالشاعر الملك يوسف الثالث ، وشاعره ومادحه ابن فركون. إذ نرى أننا أشبعنا الكلام عنهم في الفصول السابقة ــ والحمد لله ــ.

(٢) الشاعر المحسن الشهير ابو الحسن علي بن محمد بن خروف القرطبي. أصله من القيذاف الحصن المضاف إلى أعمال غرناطة . وهو بين قرطبة وبينها . نشأ أبو الحسن في قرطبة ورحل إلى المشرق ، فطبق ذكره هنالك الآفاق ، وامتلأت محاسنه مسامع الشام والعراق، واستقر في آخر أمره بحلب. ينظر: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: (الترجمة السادسة): ص١٤٣.

أرضٌ خلــــت ممـــــن ينغـــــصٌ أو يُراقـــــبُ أو يُعيــــــبُ[1]

ولا يرى ابن خروف العيد في المكان الجديد مثلما يراه تربه ابن جبير جالباً لكل شؤم ولوعة وتحسر، بل؛ يحدث العكس تماماً إذ أن أيام دمشق التي مـــا فـــي الأرض مثيلها أو صنوها،كلها أعياد ، واوقاتها كلها مسرات:

اما دمشقُ فما فـــي الأرضِ مُشـبهها جناتُ عـــدنٍ بِــها مـــا يشـتهي البشـــرُ
أرضٌ لعمـــرك مـــا فيـــها لمبتـــذلٍ ذامٌ يلـــوم ولا فـــي صفوهـــا كـــدرُ
وكــلُّ سـبتٍ بـــها عيــدٌ تعــودُ بـــهِ آمالـــهم وبـــهِ الـــزلاتِ تُغتفـــرُ
كلٌّ إلـــى مـــا دعتـــه نفســه عجــلٌ كأنمـــا فرصـــةٌ قـــد جـــاءَ يبتـــدرُ
حيثُ الميادينَ كالديبـــاجِ قـد بُسـطت خُضراً جَرتْ حولَــها مــن مائِــها طُــررُ
بـــها النعيـــمُ غـــدا للنـــاسِ مكتمـــلاً مطولاً وهُـــو فـــي الآفـــاقِ مختصـرُ[2]

والتحول المكاني يحمل دلالات عدة. فهو ذو دلالة اجتماعية تتمثل في علاقـــات الجوار التي يقيمها الشاعر المنتقل إلى المكان الجديد. فكثيراً ما يلجأ الإنسان إلى اقـــوام آخرين ، أو إلى بلاد أخرى هارباً من ظروف معينة فرضتها طبيعة البلاد الصعبة التي كان يعيش فيها، أو خوفاً من سلطان، أو تحسباً لوشاة وما شابه ذلك. فالجوار ــ عنـــد الشاعر وغيره ــ من أهم العلاقات الإنسانية التي تكشف عن عمق الصلات البشـــرية. وعظيم القيم الأخلاقية ومدى الالتزام بقوانين المجتمع السائدة وأعرافه وتقـــاليده التـــي تحافظ على حقوق الآخرين ، وتحفظها لهم.

(وفي الشعر تفسر قيمة مكان الجار بدلالة القوم الذين قبلوا جواره أو أوطنا من استجار بهم في ديارهم)[3]. وعلّنا لا نرى ما يسر إذا نظرنا في بعضٍ مـــن نصـــوص الشعر الأندلسي التي تفسر تلك القيمة، وأولئك القوم الذين لجأ إليهم الشاعر الأندلسي.

---

(١) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة : ص١٤٣ــ١٤٤.

(٢) م. ن: ص١٤٤.

(٣) المكان في الشعر العربي قبل الإسلام: ص١٤٠.

فالرصافي البلنسي يجيب قصيدة أبي عمرو بن حربون الشلبي (ت بعد٥٦٧)[١]، ويذكر أهمية الجوار الاجتماعية. وما تعارف عليه العرب من حفظ لحقوق جارهم واكرامه وتيسير اقامته، لكن؛ هؤلاء القوم الذين جاوَرَهم شاعرنا الرصافي لم يكونوا كذلك. فهم لم يرعوا تلك الحقوق ، ولم يحفظوا له عهدا. فآثر الرصافي القناعة بيا نال من الدنيا، والمضي قدما يحفظ كرامته وماء وجهه، ما دام أن الله ــ سبحانه وتعالىٰ ــ هو من يقسم الأرزاق على وفق معلوم ، ومقدار محدود. يقول:

عجبتُ من معشرٍ تمطي مآثرَهمْ ... من الثناءِ عليها ظهرَ طيّارِ
مابالُهم رقدوا في لينِ عيشِهمْ ... عن جارهمْ وهو محبوسٌ بإقتارِ
ما كانَ أقدرهمْ أن يأخذوا لكم ... علىٰ البديهِ من الايامِ بالثأرَ
والحرُّ أكثرُ ما يزري بحاجتهِ ... توسُّطٌ من خبيثِ النفسِ خوّارِ
صونُ الفتىٰ وجههُ أبقىٰ لهمتهِ ... والرزقُ جارٍ علىٰ حدٍّ ومقدارِ
قنعتُ وامتدّ مالي فالسماءُ يدي ... ونجمُها درهمي والشمسُ ديناري[٢]

علىٰ الرغم من أن المكان بقي هو المثير في نفس هذه المقطوعة الشعرية. المتألمة لهذا الجور والحيف الذي لاقاه الشاعر. إلا أن القيم الاجتماعية للعربي هي التي دفعت لنظم هذه الأبيات وبالتالي التعريض بهؤلاء القوم الذين لم يكونوا بمستوى المسؤولية الحقيقة تجاه شاعرنا ، وضيفهم الرصافي.

أما أبو حيان ؛ فهو لم يتورع أو يحاذر وهو يقصّ علينا علاقاته مع جيرته من أبناء مصر التي جعلها مكاناً وسكناً، إن يصفهم بالسوء وعدم الألفة ، وانقطاع المودة علىٰ الرغم من أنه الأديب المبرز والفقيه الذي يشار إليه بالبنان. وعلىٰ الرغم من معرفتهم له، وطول المدة التي أقامها بين ظهرانيهم . يقول أبو حيان:

عُذيري من بني مصرٍ فإنّي ... أفدتُهُم العلومَ ولا فخارُ
أقمتُ بمصرهم ستينَ عاماً ... فلَم يخلصْ لي فيهنَّ جارُ
وفارقتُ الأنامَ وفارقوني ... فَها أنا لاأزورُ ولا أُزارُ

---

(١) هو أبو عمرو عبد الله بن حربون الشلبي كان من جملة كتاب أبن قسي زعيم المريدين ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص له شعر كثر أورده من ترجم لشخصيته ، أكثر شعره الاماديح، وأكثر ممدوحيه من امراء الموحدين في المغرب. ينظر: زاد المسافر: ص١٣١ ـ١٣٣، تأريخ المن بالأمة على المستضعفين: ص٢٤٤، ص٢٤٥، ص٢٥٤، ص٢٥٨، ص٢٦٥، ص٢٦٩، الحلة السيراء: ٢/ ٢٠١، البيان المغرب: ٣/ ٦١، ٦٦، ٧٠، ٧٤..

(٢) ديوانه: ص ٩٨.

فــإنْ مــاتوا فــلا أســفٌ عليـــــهم وإن متنــــا قــــد مــــاتَ الخيــــارُ[1]

مرةً أخرى يبقىُ المكان هو المثير الدافع لنظم الأبيات ، ومرة أخرى يأتي التأكيد مـــن قبل الشاعر على تلك القيم الاجتماعية للجوار التي عرفها العرب، وغذّاها وبنىُ دعائمها الإسلام الكريم ، غير أن أبا حيان يؤكد على القيم التي تربط بين الجيران أكثر من تأكيد الرصافي عليها. فيؤكد على عدم الأخلاص، وعدم زيارة جيرانه وهو الذي أفاد البـلاد والعباد بعلومه النافعة، وآدابه الفاخرة. وقد تعود نظرة أبي حيان لهذه القيم مـــن هـذا المنظار لكونها الباقية له بعدما فقد أهله، ومدينته وتكـــالب غـير أهـل العلـم علـى العلم،وغير أهل الفقه على الفقه. كما أننا لا ننسىُ أن أبا حين عاش في نهايـة القـرن الثامن من ذلك القرن الذي شهد زوال بغداد، وشهد زوال أهل الأندلس وتكالب الأمم من كل حدب وصوب على الأمة الإسلامية في كل مكان، فلا غرو أن تكون نظرته الداخلية للمجتمع الذي يعيش فيه نظرة خاصة ناقدة تدل على ما اعتلىُ ذلك المجتمع من تفســخ وانحطاط في مفاهيمه الاجتماعية والدينية والسياسية.

ومن دلالات التحول المكاني العداء والذم للمكان الجديد . واقول أن هذا العداء ، والذم للمكان الجديد قد تعلق بنفسية الشاعر الأندلسي المنتقل إليه، مهما كانت أحداثــه ، أو كانت الناس التي تعيش على واقعه. فالشاعر الأندلسي كان قـد تعـرض لويـلات وأزمات في الأندلس ، كما نه فقد مكانه أو منصبه، وأهله فلم تحمد سيرته، ولم يحمـد أداؤه في مهمته ولذا فهو ينظر إلى المكان الجديد نظرة عدائية نابعة من صميم تجربتـه للمكان الأول الذي فقد فيه كل شيء؛ أهله، ومنصبه، ومكانته.

فأبو القاسم محمد بن نوح الغافقي البلنسي (ت٦١٤هــ)[2]. كان مشاركاً في الفقه عالماً بالأحكام إلا أن سيرته القضائية في توليه لأمرة قضاء شُقر ثم المرية لم تحمـد، فصرف إلى مراكش وتوفي بها، فيا ترى كيف ستكون نظرته لمراكش ؟ وكيف سيكون موقفه منها؟ فلنسمع أبياته هذه:

مرّاكـــشُ إن ســــألتَ عنـــها فإنّـــها فـــي البـــلادِ عـــارُ

(١) ديوانه: ص١٩١.

(٢) أبو القاسم محمد بن محمد بن نوح الغافقي البلنسي من أهل بلنسية وقاضيها ودار سلفه سرقسطة. كـان عالماً بالأحكام شاعراً مكثراً، أُستدعي إلى مراكش سنة (٦١١). وكان ابن الأبار من مشيعيه عند سفره إليها. توفي ابن نوح في مراكش سنة (٦١٤) وكان له من العمر يوم توفي ستون سنة أو نحوها. ينظر: تحفة القادم: ص١٧٢، المقتضب من تحفة القادم: ص١٢٤، المغرب:٢/٣٠٨، الوافي بالوفيات: (ترجمة:١٠) ٢١٦/١.

هواؤها في الشتاءِ ثلجٌ وحرُّها في الصيفِ نارُ
وكلّ مأثمٍ، وهو خبيرٌ من أهلِها ، عقربٌ وفارُ
فإنْ قد مكثتَ فيها فإنّ مكثي بها اضطرارُ!(1)

الشاعر (الغافقي وغيره) ما يلبث أن يصب جام غضبه على المكان الجديد الذي انتقل إليه ضرورة ، ومن غير حول منه ولا قوة. فلاشك في أن مراكش مكان معاد للغافقي من حيث أنها عار ومنقصة على بلاد المسلمين، كم أن أجواءها لا تدع لساكنيها راحة أو اطمئنان.

وحتماً أن الغافقي ينظر إليها نظرة شخصية، ويعلل هذه النظرة بالإقامة الاضطرارية السيئة للمدة التي أقام فيها. وباستثناء هذه النظرة الشخصية الضيقة فإن مرّاكش لعبت دوراً سياسياً واقتصادياً كبيراً في بلاد المغرب لاسيما في عصر الدولتين المرابطية والموحدية(2).

وكان الكاتب الأديب أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي قد تولى القضاء وفي عدة مدن إفريقية(3). ومن هذه المدن مدينة شقنبارية(4)، الذي يبدو أنها قصرت به عن نيل آماله. وأردت به بعيداً عن تحقيق ما يريد. فأضافت له جرحا آخر إلى جراحه التي كَثُرت لاسيما بعد فقده بلنسية وبكائه عليها، وبعد هجرته الأندلس وهي مصابة متألمة . يقول المخزومي:

إن الشقاءَ بَرى بشقنباريةَ جسَدي وأسلمني لا كبرِ داهيهْ
من بلدةٍ عنّا نأتْ خيراتُها لكنْ قطوفَ الشرِ منها دانيهْ
ملكُ العقاربِ والرتيلا أرضَها والجوُّ صاعقةٌ والريحُ عاتيهْ
قال الذين تخيّروها منزلاً: فيها كنّا عِنبٌ وعينٌ جاريهْ

(1) صبح الأعشى: ٣/١٥٧، الروض المعطار: ص٥٤١. وفيه نقص البيت الأخير من الأبيات التي استشهدنا بها.

(2) ينظر: معجم البلدان: ٥/٩٤، كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار: ص١٦١ـ١٦٣، الروض المعطار: ص ٥٤٠ـ٥٤١، وصف أفريقيا: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بابن ليون الإفريقي (ت بعد سنة ٩٥٧هـ) ، ترجمة عن الفرنسية : محمد حجي. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية ـ الرباط: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م: ١/١٠٠ـ١٠٦.

(3) ينظر: أبو المطرف بن عميرة المخزومي (حياته وآثاره) : ص٨٥.

(4) شقنبارية: مدينة في بلاد إفريقية بالقرب من بلاد الاربس. ينظر: الروض المعطار: ص ٣٤٨ـ٣٤٩.

فأجبتُ بالشهواتِ حُفّتْ مثلما حُفّتْ بها نارُ الجحيمِ الحاميهْ[1]

أما ابن الخطيب فكانت مراكش تمثل بالنسبة لظروفه وانفعالاته ومكانته التي خسرها ومكانه الذي فقده وأهله الذين خسرهم ، ووزارته التي صرف عنها مكاناً جديداً معادياً ذات صفات مشؤومة . ولذا خاطبها لسان الدين بلوعة شديدة ، وببكاء عميق وغربة محرقة حينما قال فيها:

بلدٌ قد غزاه صرفُ الليالي وأباحَ الحريمَ منه مبيحُ
فالذي خَرَّ من بناه قتيلٌ والذي خرّ منه بعضٌ جريحُ
وكأنَّ الذي يزورُ طبيبٌ قد تأتى لَهُ بهِ التشريحُ[2]

ويمضي بين تلك الربوع والاطلال وهي عجماء لا تبين ، دوارس لا تفصح عن ملاعبها ومغانيها، ما فيها إلا جمال قبر ، وملوك كانوا.. فأصبحوا:

أَعجمتْ منهُ أربعٌ وطُلولٌ طالَ قدماً بها اللسانُ الفصيحُ
كم معانٍ غيبت بتلك المعاني وجمالٍ أخفاهُ ذلكَ الضريحُ
وملوكٍ تعبّدوا الدهرَ حتى أصبحَ الدهرُ وهو عبدٌ صريحُ
دوخوا نازحَ البسيطةِ حتى نالَ ما شاءَ ذابلٌ وفصيحُ
حين شُبّتْ لهم من البأسِ نارٌ ثم هبّتْ لهم من النصرِ ريحُ[3]

ومن ثم يعرج ابن الخطيب على مثل هذا الأثر الكبير الذي تركه المكان الجديد في نفسه. فأبكى به قلوب النجوم، وأحزن له عيون السحاب ، ثم استعجب من أن تسكن داراً بجسدٍ وقد زهقت الروح، وانتزعت بحلولها هذا المكان:

أثرٌ يندبُ المؤثّرَ لما طالَ بعدَ الدنوِ منهُ النزوحُ
فقلوبُ النجومِ تخفقُ وجداً وعيونُ السحابِ حزناً تفوحُ
ساكنَ الدارِ روحُها كيفَ يبقى جسدٌ بعدما تولّى الروحُ[4]

---

(١) الروض المعطار: ص ٣٤٩.

(٢) ديوانه: ص ٣٧٦.

(٣) م. ن: ص ٣٧٧.

(٤) م.ن.: ص ٣٧٧.

إن مثل هذه القصيدة إنما نبعت من شكوى ومعاناة دائمة لحياة عاشـــها أديـــب أريب، ومفكر ناضج كلسان الدين بن الخطيب . ولذا فلا نرى فيها آثار التقليد لشـــاعر العصر العباسي البحتري (ت٢٨٤هـــ) في رثائه للأطلال والدوارس من الأمكنة التـــي مر بها، أو جاءت بين مضامين أشعاره كما ألمح لذلك محقق ديوان ابن الخطيب[١].

لقد نعمت مراكش ــ كما أشرنا ــ بمثل ما نعمت به غيرها من بلدان الإســـلام من حيث البناء والحضارة والعمران، وكانت مميزة في الأمور الاقتصادية، والنواحـــي السياسية مبرزة من حيث الوظائف الإدارية التي جاءت بتلك الحضارة وجلبـــت ذلـــك التميز لما حباها الله من مكان ستراتيجي مهم جعلها بمثل هـــذه الخصـــائص، وخولـــها هاتيك المهام. فعندما يبكيها ابن الخطيب وغيرها، ويصف ما حل فيـــها مـــن فوضـــى وفساد فلا يعني أنه يبكي من خلالها آثار المشرق وحضارته وعمرانه. فابن الخطيـــب من آثاره وتجاربه، رجل بحاثة، وشاعر موهوب، ومؤلف نحرير وما إلى ذلـــك مـــن مؤهلات جعلته في مصاف الشعراء المتقدمين في الأندلس والمغرب ، فإذا ما رثـــى أو وصف أو مدح فلا يذهب بنا الكلام بعيداً، لنقول أنه جاء بما جاء به أبـــو تمـــام فـــي مراثيه، والبحتري في أوصافه، والمتنبي في أماديحه فـــ (ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق)[٢].

كانت هذه أبرز مواقف الشاعر الأندلسي تجاه مكانه الذي عاش فيه مغتربـــاً أو غريباً باكياً متحسراً لسقوطه أو لفقده. ونحن إذا ما عالجنا هذه المواقف في نصـــوص هذا الشاعر التي أبانت عن هذا الكم الهائل من الأزمات والانفعالات تجاه هذه الأمكنـــة. وحاورنا تلك النصوص من خلال معطيات المكان ودلالاته وتداعياته على صعيد النص الشعري ، فإننا بانتظار الزمن ليضع أمامنا مزيداً مـــن دواويـــن الشـــعر الأندلســـي ، ونصوصه المفقودة فنتمكن من اكتشاف الجديد من مواقف الشعراء الأندلســـيين نحـــو أمكنتهم ، ونبين علاقاتهم ببيئاتهم ، ومن ثم نحكم عليها جودة وقيمة.

---

(١)ديوانه: (مقدمة المحقق) : ص١٧٥.

(٢) الكامل في اللغة والادب: محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـــ)، تحقيق: محمد أبو الفضـــل إبراهيـــم، دار الفكر ــ القاهرة ، (د. ت): ٢٩/١.